معه يذكر اكتوبر الآخر؟!

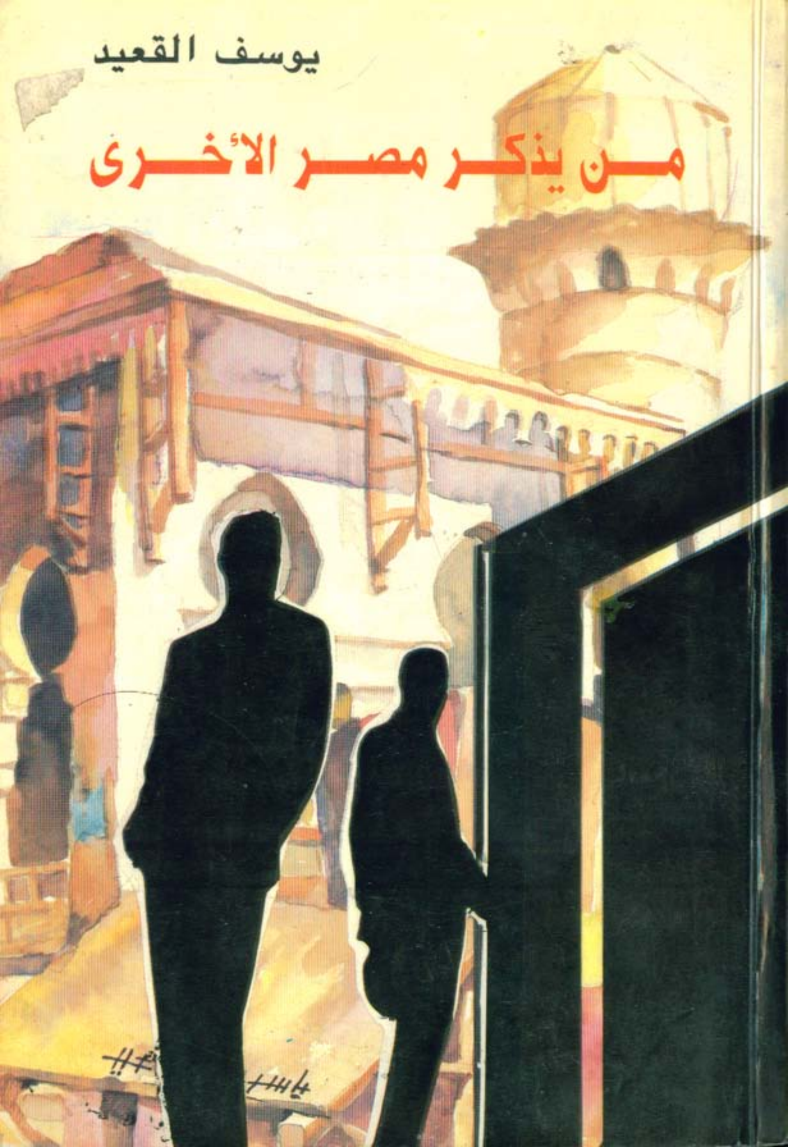
مشـهادة الفلاح الـعضيح فى زمن الحـرب. الحرب فى بر مـصـر. الـسفـر. فـى الاسبـوع سبـعـه أيام. تجـفـيف الـدموع سـتـه نصـوص قصصـيه للروائى والقـاص الكبير: يوسـف القعيد. يـجمع بينهـا انها كلها تتحدث عن مصر الاخرى. مصر التى مضت خوزة القتال على رأسها. وامسـكت بندقيتها. وقـررت على نحو عفوى وتلـقائى. ان ما أخذ بالقوة لايسترد بغير القوة.

هذه القصـص تقدم أخر صورة تذكـاريه لمصر الاخرى عند القمه التى بدات الـنزول من فوقها عندما وضع السادات قدمـه الاولى على ارض فلسطين التى إغتصبها العدو الاسرائيلى الصهيونى.

فى اكـتوبر كل سـنه يتسـاءلون: اين ادب اكـتـوبر لدرجة ان شـهر الانتـصـار اجـم شـهـر السـؤال. وهـانـحق نـسهـم فى مـحاولـه الاجابـه عليهم. تقول لهم. هذا هـو اكتوبر الآخر.

يوسف القعيد

من يذكر مصر الأخرى



يطلب الكتاب مباشرة من

مكتبة مدبولي ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP 6 Talat Harb SQ. Tel: 756421

مطابع ستار برس للطباعة والنشر

٤٠ ش المحولات الكهربائية - محطة المطبعة

الهرم ت ، ٨٦٤١٥١

من يذكر مصر الأخرى

سته نصوص قصصية

الطبعة الأولى .. وزارة الثقافة

دمشق – سوريا ١٩٨٤

الطبعة الثانية: مكتبة مدبولى

١٩٩٢

إليهم . . .

فريد النقاش.

أحمد نبيل الهلالي.

شاهندة مقلد

حسين عبد الرازق.

أحمد فؤاد نجم.

محمد يوسف الجندي.

من يبحثون عن مصر الأخرى في السجون
أو في جوف الشعب المصري العظيم . .
ومن يشعر الانسان بالخجل الذي بلا حدود
أمام بطولاتهم اليومية العظيمة . .

ليس هناك سلام.
والحرب شيء مقيم
لقد سرنا عشرة آلاف ميل
وقطعنا نصف محيط الكرة.
لنصنع الحرب.
ليس هناك سلام فى الوطن
فالشوارع مرعبه
والناس أصابهم الجنون
يريدون السكن والعمل والحب
والنقود.

ليس هناك سلام فى الخارج
ولا سلام فى الداخل
من يشعر بالسعادة؟
من يحس بالرضا؟
لقد خلقت الحرب قروداً
منا جميعاً

فها هــو رأســك يرفــل فـــى الــثراء.
وها هو جونســون ينـعم بــثراء أوســع
بينما نهرع نحــن بحـماس كل صــباح
لنصنع المال لأناس لانملك حتى ان نراهم.
الحـــرب تـــعنى المـــوت، لــكن.
الأغنـياء مــن النــــاس لا يمـــوتون

وحتى تأتى اللحظة الــتى ننهـض فيـها
أنـــت وأنـــا والآخـــرين جمـيعاً
وننقض على رجال الاعمال، والجنرالات.
ورجـــــــال الكونجـرس.
الذيـــن هيـــأوا لأنفســهم
مثل تلك الحيـاة الســهلة الفخيـمة
وهـم يتعاملــــون فــى دمــاء
مواطنيــــهم مـــن الامــريكيين
وحتـــــى تحـــين اللحظة
التى نـــقذف فيهــا بهم جمـيعاً
إلـــى القمـــامة.
حيث مأواهم الحقيقى.

وحتى تحـين اللحـظة
التى نملك فيها أن نقررً
كيـــف نعيـــش

وما الذى نرغب فـى الدفـــاع عنه.
وما الذى نرغب فى الموت فى سبيله
حتـــى نقـــررً ذلك لأنفســـنا
لـــن يكون هـــناك سـلام *.

* ورقة توزع عند انتهاء العرض فى مسرحية «الحكام». من كتاب «مسرح الشارع فى امريكا» ترجمة عبد السلام رضوان. العرض قدم ٣٤ مرة ويستغرق ٣٠ دقيقة.

رحلة البحث عن مصر الأخرى[1]

شهادة شخصية جداً

. . هل ما سأكتبه مقدمة ؟! لا أعرف بالتحديد. ولكنه يبدو كذلك. مع اننى لست من هواة كتابة المقدمات للعمل الأدبى. خصوصاً عندما يكون هذا العمل ابداعاً. فى هذه الحالة، فإن أى مقدمة، تعنى ان خللاً ما، أصاب عملية التواصل. وهذا الخلل، اما ان يكون فى النص الأدبى، أو فى المتلقى. أعرف هذا كله. وما فى هذا الكتاب قصص قصيرة. ومع هذا لا بد من المقدمة. والمقدمة اكتبها لأجيب على سؤال يلح على، قبل أن يطرحه القارئ: كيف أجمع قصصاً سبق ان نشرتها فى مجموعات قصصية من قبل وأعيد نشرها فى مجموعة جديدة. وفى سياق جديد تماماً. كيف أفعل هذا مع ايمانى التام ان المجموعة القصصية ليست وضع لقصص بعضها بجوار البعض، لا يجمع بينها سوى الغلاف الذى توضع بداخله. العلاقة بين القصص أبعد من هذا. والمسألة تتعدى مجرد التجاور الورقى داخل غلاف واحد.

من المؤكد اننى ارتكبت خطأ ما. أخذت عليه الآخرين عندما أقدموا عليه من قبل. خاصة وان الكثيرين الآن - وفى مرحلة الافلاس الأدبى والعجز عن الاستمرار فى القول - يعودون إلى القصص القديمة. يغيرون فى العناوين وبعض الاسماء والملامح والامكنة والازمنة. إنهم يعيدون خلط الأوراق «وذلك تعبير سياسى

للأسف» محاولين خلط شربات الماضى بفسيخ الحاضر. فيجعل الأول من الثانى أمراً ليس مقبولاً فقط ولكن حلو المذاق. فكل الأشياء الحلوة أصبحت من ذكريات الزمان الجميل الذى مضى ولن يعود أبداً.

لست أدافع عن نفسى. فأنا لا أقف فى قفص اتهام. وببساطة كان يمكننى القول فى آخر صفحات هذا الكتاب الجملة التقليدية الشهيرة، وهى ان المؤلف لن يعيد طبع مجموعاته القصصية كذا وكذا، وهى المجموعات التى أخذت منها هذه القصص. كان يمكن ان أفعل هذا. ولكن المسألة أبعد وأعمق من ذلك كله. فأنا لا أفعل ذلك لأنه لدى أزمة انتاج. بالعكس. مالدى من انتاج لم ينشر بعد كثير، وعدم نشره بصورة قريبة زمنياً من فترة كتابته يخلق لى مشكلة دائم بين صورة هذا النتاج كما هى فى الواقع، وصورته لدى الآخرين. ولكن تلك حكاية أخرى. كما أننى لا أهرب من مواجهة لحظة راهنة فى بر مصر. قلت مالدى. وقلته هنا فى مصر. ولم أقله وأنا فى المهجر. وهذا لا يقلل من دور من يقولون مالديهم فى المهجر أبداً. فلكل منا ظروفه. ولا أعتقد أن من يلعبون أدوارهم فى المنفى سعداء بذلك أبداً. عموماً هذا بعيد عن حكايتنا الآن.

ويبقى السؤال: لم أجمع هذه القصص القديمة وانتزعها من سياق قصصى سبق وان نشرت به من قبل. وانشرها بهذه الصورة الجديدة. انا اقف أمام السؤال كثيراً. لأنه عذبنى طويلاً. وحاولت

تفسير الموقف. وكان ذلك صعباً. اتهمت نفسى بأننى أحاول استثمار ظرف معين يمر به الوطن العربى. وان هذا الاستثمار يصل بهذه الصورة إلى مداه. واتهمت نفسى. ان الحنين لأدب كتبته قبل لجوئى إلى الأدب الذى يطرح هما سياسيا هو السبب وربما كان الأدب القديم. يشبع لدى بعض الأمور الانسانية، التى افتقدها فى النتاج الجديد.

ولكن يبدو أن المسألة أبعد من كل هذا.

إنها تعود إلى ما جرى فى بر مصر فى نوفمبر سنة ١٩٧٧م. حيث بدأت رحلة فردية. وكافة رحلات جماعة المثقفين الذين يعيشون فى الداخل. والذين اسميهم المجاهدين المرابطين فى الديار. أو خط الدفاع الأول. أقول ان معظم رحلات هؤلاء المثقفين فردية تماماً. تخلو من دفء المشاركة. ومن تألق العمل الجماعى ومع إسناد الظهر المتعب إلى الظهر المرهق. حتى لا نقع جميعاً مرة واحدة.

والمستفيد الوحيد من حالة الوقوع هذه، هو العدو، سواء أكان هذا العدو فى الداخل أو فى الخارج.

لا أحب الخوض كثيراً فى ظروف القوى الوطنية فى الداخل فتكفى الضربات التى توجه إليها من ألف عدو وعدو. ورغم هذا ما تزال على قدميها. تقف وقفة فريدة. العدو من الخلف ومن الأمام. وأى ضربات فى اتجاه العدو الامامى لا بد وان تصاحبها ضربات فى اتجاه العدو الخلفى.

أعود إلى نقطة بدء الرحلة. ولكنى قبل العودة أقول. انه فى قريتنا مثل يقول: ان التاجر عندما يفلس فإنه يتوجه إلى دفاتره القديمة. يستجديها. وأنا لست تاجراً. ولست مفلساً. ولكنى أعيش فى حاضر يعانى حالة من الافلاس لم أرها من قبل أبداً. وربما كان هذا هو الدافع لكى أعود إلى أوراقى القديمة. ابحث فيها عن مصر الأخرى. ذلك الوطن الذى أوشك على الهبوط إلى القاع والإختفاء حتى من على جدران الذاكرة. أكتب هذه الشهادة – وليس المقدمة – فى الربيع الأول من عام ١٩٨١ المفروض اننى فى الربيع. وذكر الربيع ليست له أية دلالة. فالربيع لم يعد هو الربيع. لم تعد الحياة بقادرة على التجدد فيه. ولا الحقول ترتدى ذلك الثوب الأخضر الزاهى. ولا النفس البشرية تقبل على الحياة.

بداية الرحلة تعود إلى ليلة من ليالى نوفمبر ١٩٧٧. ليلة العودة من القدس المحتلة. خرجت ليلتها وأنا فى حالة من الذهول. لكى أرى ما يجرى أمامى. كانت الجماهير تقف على جانبى الطريق. قوات الأمن أكثر من الجماهير فى العدد. وقفت عن بعد. قلت لنفسى انه «الإستفتاء المسلح». مسافة تفصلنى عن الناس حتى أتمكن من الرؤية جيداً. لحظة فاصلة وهامة ما فى ذلك شك. وصل الموكب. قبله مرت سيارات الأمن المدرعة. أدركت من النظرة الأولى ان الليل بدأ ينزل على القاهرة. لأن سيارات الأمن المدرعة كانت تضئ أنوارها الصغيرة. وكانت هذه الأنوار تضئ وتطفئ وفق نظام معين. أذكر ان

الأنوار كانت حمراء. وعندما فوجئت السيارات بحالة الصمت وعدم الفهم وعلى الأقل عدم المشاركة من الناس. بدأت منبهات الصوت تدق وفق نظام معين. ومع أصوات المنبهات انطلق هتاف «بالروح بالدم» ولأن الهتاف فى مثل هذه المواكب ينتقل عن طريق العدوى. تنظر بجوارك. فتجد ان الواقف يهتف فتهتف معه. تردد الكلمات التى تقال بصوت عال. وتلوح بالأيدى وتحدث حالة من الهتاف الجماعى. الذى يتم بروح المشاركة.

أتى الموكب ومر الموكب وكانت الهتافات ترن فى أذنى. نظرت إلى الجماهير من جديد. فى هذه اللحظة انسدلت رخامة. مسافة زجاجية. جعلت الأصوات تصلنى من عالم ثان. بعيد. ابتعدت الأصوات. هالنى ما أشاهده. كانت الأسئلة تدق عظام الرأس بقوة: هل صحيح هذه هى الجماهير المصرية؟! هل هى الجماهير التى أيدت الثورة وعاصرت فترة المد العظيم. وهتفت لتأميم قناة السويس وحملت السلاح فى بورسعيد. هل هى جماهير ٩، ١٠ يونيو؟! هل هى جماهير حرب الاستنزاف وحرب اكتوبر؟ هل هى جماهير يناير المصرى.؟ القريب جداً. والذى لا تفصلنا عنه سوى عشرة أشهر فقط. وهى فى عمر الشعب فركة كعب قصيرة الأمد؟! طبعاً لست معادياً لهذه الجماهير. وطرح السؤال لا يتم من أرض مواجهة لها. بقدر ما يتم من أرض الحب لها.

فى اللحظة التى كنت أقف فيها. فإن أعمالى الأدبية تفوح برائحة

حبهم والارتباط بهم والرغبة فى التعبير عنهم. ولكن السؤال كان بسبب ضخامة المفاجأة.

لست غريباً عن مصر. وأعيش فيها كل لحظات العمر. أعرف جيداً الطريقة التى تم بها جمع هذه الجماهير. وخلال الرحلة إلى القدس المحتلة. كنت أرصد كل ما تم بهدف إرضاء هذه الجماهير. وزعت على الجمعيات الاستهلاكية كميات من المواد الغذائية. لم تحدث من قبل. ربما منذ سنوات. كانت اللحوم والدجاج والزيت والسكر والأرز تملأ الجمعيات. هذه المواد وصلت إلى القرية وهى المحرومة منها. بحجة ان القرية هى التى تنتج كل شئ فكيف تفكر فى الحصول عليه؟ قبل هذه الايام. كان الوضع فى الاسواق لا يمكن وصفه سوى بكلمة «الحافة» لا أعرف ان كانت حافة الجوع أو حافة الشبع والامتلاء. فى تصورى. انه كان مطلوباً ان تعيش الناس على الحافة. ان لا تجد ما تأكله. وفى نفس الوقت أن لا تجوع لدرجة الثورة. وان لا تشبع لدرجة التفكير فى أمور حياتها اليومية. إلى ان أتى نوفمبر ١٩٧٧. شهر «القفزة نحو المجهول». شهر التضحية بالممكن طلباً للمستحيل. والتضحية بالمعلوم نحو المجهول.

تحدثت كثيراً عن التموين والاسعار والطعام. ولكنى لا أقصد من هذا إلى القول ان الشعب المصرى شعب تقوده معدته. وان الطريق إلى ذهنه لا بد وان يمر بهذه المعدة. لا أعتقد ان هذا المعنى كان هدفى. ولكن من عاش فى مصر، فى هذه الأيام العصيبة، لا بد من

أن يدرك مدى العناء اليومى، الذى كان يعيشه المواطن العادى. الذى تراجعت أحلامه. لدرجة أن الوقوف بجوار نافذة فى الاتوبيس أصبح حلماً. والحصول على رغيف من الخبز بعد الوقوف فى طابور أكثر من ساعة أمنية. لا يدخل فى شكلها ان كان الرغيف أبيض أو أسود أو خاليا من الطوب والزلط. والذين سقطت بيوتهم – لأى سبب والاسباب كثيرة – تراجعت أحلامهم ايضاً. لم يطلبوا سكناً. ولا حتى كانت الاقامة فى قبر من أمنياتهم. ولا حتى فى صحن مسجد. ولكن كان الحلم هو الحصول على خيمة تنصب فى مكان عام. وحتى هذه الخيمة. كانت هناك قوائم إنتظار بدون حد. حتى يأتى دور تسلم الخيمة.

كان التمهيد لنوفمبر ١٩٧٧ طويلاً. قدمت فصوله ببراعة تامة. واستغرق الأمر فترة من الوقت. وكان هذا التمهيد يسير فى خطوط متوازية. فيها الحديث عن الحرب كسبب وحيد لكافة همومنا. وكذلك محاولة تشوية صورة العربى فى الذهن المصرى. واستخدم فى ذلك كل شئ حتى الحوادث اليومية، وطريقة تقديمها للناس.

فى نوفمبر ١٩٧٧. مواطن من الذين خرجوا فى هذه المواكب قال لى: هذه نقرة وتلك نقرة أخرى؟ كان الرجل يتصور ان الأمر هو الباب الوحيد المؤدى إلى الرخاء والحياة السهلة، التى لا توجد فيها هموم اقتصادية يومية. ومع هذه فلديه احساس حاد ان اسرائيل هى عدوه الأول والأخير. قال لى نفس المواطن: هل نسيت اننى من أسرة

استشهد منها سبعة فى حروب مع العدو. هل نسيت. وهل ينسى الدم. انه السائل الوحيد الذى لا يمكن ان يصبح ماء ابداً. اما ان يبقى دماً أو أن يتجلط. يفقد شكله السائل فوراً. ويتحول إلى شئ آخر. بدت لى بلدى وكأنها من عنف الصدمة قد فقدت حتى قدرتها على الاستيعاب وفهم ما يجرى لها. وبدأت المخاوف. كنت أخاف أن يعطينا هذا الشعب العظيم ظهره. وان يدخل كهفه التاريخى المعهود. ان يعتصم بالصمت واللامبالاة، «والاناماليه» المعروفة وان ينظر إلى الأمور من بعيد وكأنها لا تخصه.

ولكن الايام التى تلت ذلك أثبتت عكس هذا. قالت بوضوح ان هناك مصر أخرى تماماً. تتحرك وتتنفس وتعيش. ان مصر الفعل الايجابى ومصر التألق العظيم ما زالت كما هى. وان المطلوب منا فقط القيام برحلة بحثاً عن مصر الأخرى. مع تذكير الناس الدائم بها.

كانت رحلة البحث عن مصر الأخرى. والتذكير بها صعبة فى البداية. ولكن جاءت أحداث معرض القاهرة الدولى للكتاب. والتى حدثت فى ختام العام الاول مما يسمى بتطبيع العلاقات مع العدو. لتقول ان كل المطلوب خطوة. خطوة واحدة فقط. ويجد الانسان نفسه هناك فى مصر الاخرى. ما حدث فى معرض الكتاب، الذى كان ختاماً عظيماً لعام التطبيع الأول. لم يأت من الفراغ. وليس حدثاً بدون سياق تاريخى. وكانت له آلاف المقدمات، التى حدثت خلال هذا

العام الأول. بل ان الموظفة العادية، التى صعدت حيث كان يوجد علم العدو الصهيونى وأنزلت هذا العلم ومزقته، ورمت أجزاءه، وأصابت بجزء منها سفير العدو الصهيونى. ومنعته بذلك من فرصة التقاط صور له فى مكان المعرض. هذه الموظفة، العظيمة، التى فعلت هذا ومضت دون ان نعرف حتى اسمها. هذه الموظفة كان هناك من سبقها وقام بالكثير من الاعمال البطولية، فى صمت وبعيداً عن الاضواء. وكأن الفعل البطولى أصبح هدفاً وغاية فى حد ذاته.

فى نوفمبر ١٩٧٧ . قلت لنفسى من المؤسف اننى وابناء جيلى قد عشنا هذه الايام. وكان الموقف حاداً. اما ان نسدل ستارة كثيفه تفصل بين ظلام اليوم ووهج الأمس. ان لا يكون لكل منا ماض. ان تحرر لنا جميعاً شهادات ميلاد. تبدأ كلها من التاريخ الراهن. ان تفرغ الذاكرة من كافة محتوياتها. أو نعيد مصر الاخرى. نستعيدها ونوجدها قبل ان تضيع منا.

وكانت الرحلة. بدأت الرحلة فى التاريخ. ولم يكن الرحيل باتجاة التاريخ خطأ. ولكن لا بد من الاعتراف هنا. ان الرحلة الاخرى، كان لا بد وان تتم باتجاه ظواهر الواقع المعاصر لنا. أى رحلة أخرى فى المكان. ان الجرى وراء الماضى، الناتج من الاحساس بإفلاس الحاضر لم يكن خطأ. فهو وجه لرحلة من وجهين.

الرحلة فى زمننا الراهن أكدت لى، ان الفة الرؤية اليومية للأشياء، ربما كانت خطأ. وانه تحت هذا السطح المألوف والعادى يوجد الكثير

من الأمور غير العادية. المهم أن نفرك أعيننا. ان نزيل من عليها تراب الالفة اليومية. ان تحاول التعامل مع ما تحت السطح. وان لا نشارك فى ارتكاب جريمة النظر إلى الوضع القائم باعتباره أمراً عادياً.

فى بداية الزمن الجريح. عمنا كثيراً فى بحار الكلمات. تهنا بحثاً عن الشئ المفقود. ولكن الواقع حولنا كان مليئاً بالاف الامثلة لمصر الاخرى. . والتى تحدث كل يوم. ابتداء من سعد حلاوة، الشاب المصرى الذى احتل وحدة صحية فى احدى القرى لحظة تقديم سفير العدو الصهيونى أوراق اعتماده، احتجاجاً على هذا الاجراء. والذى استشهد لحظة اقتحام الوحدة الصحية. حتى موظفة البنك، التى رفضت استبدال العملة لسائح اسرائيلى. وتركت مكان عملها رفضاً حتى للتواجد فى نفس مكان يتواجد فيه هذا العدو. وحتى وكيل احدى الوزارات، الذى يعد من اعمدة النظام فى هذه الوزارة، الذى كان يفتتح معرضاً فنياً فى احد المراكز وفوجئ خلال حفل الافتتاح بوجود سفير العدو فى المكان. توقف وكيل الوزارة عندما شاهد سفير العدو. وكان الرأى ان ينسحب الجميع إحتجاجاً على وجود هذا الضيف المرفوض. الضيف الثقيل، الذى لا يستحق حتى لقب الضيف من الاساس. كان من رأى مساعدى وكيل الوزارة ان ينسحب الكل من المكان. ولكن وكيل الوزارة رفض فكرة الانسحاب اصلاً. وقف وقال انه لن ينسحب أبداً. ان مصر بلده والمفروض ان

ينسحب الدخيل. وان اقترب منه سفير العدو سيحدث مالا تحمد عقباه. ويبدو أن الدخيل فهم ما جرى وانصرف من المكان. مواطن، عرف انه يمكنه ارسال خطاب بالبريد إلى الأرض المحتلة. فذهب ومعه خطاب، لأن له بعض الأهل هناك منذ فترة من الوقت. موظف البريد الموقر أخذ منه الخطاب. نظر فى العنوان. استنكر العنوان. ورفض أخذ الخطاب. عندما أفهمه صاحب الخطاب ان هناك بريداً يرسل إلى الأرض المحتلة. قال له الموظف انه لم يحدث ان ارسل خطاباً واحدا إلى هذه الارض المحتلة، منذ كان هناك هذا البريد الغريب.

بعد حادث معرض القاهرة الدولى للكتاب توجه سفير العدو الصهيونى إلى محل جروبى المشهور وسط العاصمة المصرية. ذهب إليه لأول مرة. وذلك ليرى مدى شعبيته. وشعبية التطبيع المفروض على الناس. فى المحل، تطلع السفير الارهابى إلى المصريين. وتطلع المصريون إليه. جلس الارهابى إلى مائدة فى وسط المحل. وبدأت الطاولات من حوله تخلو من أصحابها. رويداً رويداً كما يقولون فى القصص. حتى اكتشف السفير القاتل انه يجلس بمفرده فى المحل. نادى على الجرسون ليدفع الحساب. ولكن الجرسون أخبره ان المحل قرر ان تكون طلبات السفير بالمجان. وهنا تهلل وجه الارهابى وشكر الجرسون على هذا الكرم. البالغ. ولكن الجرسون استدرك قائلاً:

ـ ولكننا نطلب منك الا تعود إلى هذا المكان مرة أخرى. فقد خربت بيتنا.

صور مضيئة عدت بها من الرحيل فى الزمان إلى الماضى المشرق والرحيل فى المكان نحو دفء الآخرين. ويعود الانسان من رحلته إلى جماعته. جماعة المثقفين. ليجد ان الصورة لديهم اقل اشراقاً من الواقع الخارجى تماماً. تشرذم المثقفون. سكت من سكت وانسحب من الميدان من انسحب. وتاه الكثير منا فى القضايا الفرعية والجانبية. واكثرنا ناضل ولكن فى حقول حروف الابجدية. عمنا فى بحار الكلمات ـ وانا من هؤلاء بالمناسبة ـ فى أغلب عجزنا عن الفعل. وطلبنا من الكلمات ان تقوم بالدور المطلوب منا. ونحن نعلم مقدماً ان هذه الكلمات مكتوبة فى وطن تصل نسبة الامية فيه إلى ما هو أكثر من ٨٠٪ والكلمة المسموعة هى الاحساس. فنحن فى واقع متخلف، تلعب الاذن فيه دوراً اهم من العين. تشرذم المثقفون فى مواجهة اعداء ثلاثة. العدو الداخلى المثل فى اليمين. واليمين فى الواقع الثقافى. يمين من نوع خاص. يمين يمجد الجهل ويعبد الخرافة ويرفض المنطق ويعجز عن مواجهة أية قضية من القضايا. يمين حلمه الوحيد: الغاء العقل. والعودة بالوطن إلى زمن الجهالة والغاب وان يجد فى هذا الوطن الانسان الأداة، بدلا من المواطن الموقف.

العدو الثانى: كان الغزو الثقافى الصهيونى. ففى الوقت الذى لا

توجد فيه ثقافة صهيونية أصلا. إلا أنه كانت هناك محاولة صهيونية لغزو ثقافتنا وتفريغ عقلنا من محتواه. والعدو الثالث: كان الغزو الثقافى الاستعمارى. وامريكا هى التى تقود هذا الاتجاه، وبعض دول اوربا الغربية وفى مقدمتها المانيا الغربية.

اعداء ثلاثة، وان كان الهدف واحداً: تفريغ العقل المصرى من محتواه وتحويله إلى عقل تابع. لا يطرح السؤال ولكنه يبحث فى كسل عن أية اجابة. عقل يقول نعم ولا يحاول الارتفاع إلى مستوى كلمة لا. انه عقل التابع فى احسن الاحوال. وليس حتى عقل المبرر.

فى مواجهة هذا الوضع الفريد، كان المثقف الوطنى، صاحب القضية يبدو محروماً من قاعدته. أى انه بدون أرض يقف عليها. ولا سماء يتطلع نحوها. نشر البعض نتاجه خارج مصر. ولكن ما قيمة الكلمة ان ولدت فى المنفى وحرمت من الوصول إلى من كتبت عنهم ومن أجلهم.

يضاف إلى هذا هموم الحياة اليومية الاخرى لجماعة المثقفين. فالبعض منهم بدون عمل. وبدون سكن. وبدون أى مصدر للرزق. وبدون أى ضمان للغد. وهذا يسلمه إلى حالة من التاكل الداخلى. ببساطة فالمثقف الوطنى فى وضع فريد. يجد انه ممنوع عليه ان يعوم وممنوع عليه أن يغرق حتى القاع. وضع فريد. كان من المفروض ان يدفع جماعة المثقفين فى مصر إلى التماسك. ولكن الحاصل ان خلافاتهم بعضهم مع بعض، كانت أكثر حدة من

خلافاتهم مع اعدائهم الثلاثة. وفى ظل هذا، كان هناك سيف السلطان وذهبه. السيف معروف. ترسانة. من القوانين. فى هذه البلاد غدة تفرز القوانين اليومية. ومن لم ترهبه ترسانة القوانين. فهناك الذهب. والذهب معروف مولد الجوائز والمنح وفرص النشر والتلميع النجومى وللأسف انسحب البعض من الميدان لأن ترسانه القوانين ارهبته، أو ان بريق الذهب خطف عينيه. فلم يعد بقادر على رؤية أى شئ سوى بريق الذهب. والبعض حاول الجمع بين الأثنين. العمل ضد الذهب نهاراً والتمتع ببريقه ليلاً. والليل يخفى حقائق الاشياء.

شغلنى طويلاً الحال الذى أصاب جماعة المثقفين فى مصر. ناقشت الكثيرين. ولكن كان من الواضح ان حالة العجز عن العوم والعجز عن الغرق، أصابت الكل بحالة غريبة. كانت ظاهرة مخيفة. حالة التآكل من الداخل ونهش الذات. والغذاء اليومى على لحم الآخرين والسكر بدم الآخرين. والوصول إلى الذهب على جسر من اجساد الآخرين.

بعد تفكير طويل. اعتقدت – وذلك مجرد اجتهاد شخص بحت – ان السبب يكمن فى اننا جميعاً ابناء الطبقة الوسطى. وآه من لعنة هذه الطبقة. والدور المخرب الذى تقوم به فى العالم الثالث كله. حزنت كثيراً فى هذه الايام لأن أحمد بهاء الدين، وهو واحد من أهم مفكرى بلادنا، واحد الرجال الصامدين فعلاً. حزنت لأنه فى شبابه

كان ينوى عمل دراسة عن الطبقة الوسطى المصرية. واعتقد انه كتب بعض أفكاره حول هذا الموضوع فى مقال نشره فى «صباح الخير». فى فترة متقدمة. المشكلة تكمن فى هاتين الكلمتين: الطبقة الوسطى. الانسان المتوسط معروف عنه عبوديته التامة للملكية. وضعفه أمام اغراء النجومية. ومتذبذب ومتردد. يأخذ القرار ويعدل عن القرار. ويعدل عن العدول. كل هذا يتم فى جزء صغير من الثانية. عاجز عن المواجهة. له وجه وله قناع. والمسافة بين الوجه والقناع بعيدة المدى. يقول، وان كان القول يقف على النقيض تماماً مما يفعل. يحاول الجمع بين الثنائية الخالدة: ترف اليمين وغناه. وفى نفس الوقت وجاهة اليسار الفكرية. يخوض أغلب معاركة فى حقول اللغة.غير صدامى الطبع: متكلم عظيم. ولكنه فاعل ضئيل، المأساة ان الكل ينحدر من اصول هذه الطبقة. حتى من مارس عمل الفلاح. أو كان عاملاً بالفعل فى فترة من فترات العمر. بمجرد ان يصل إلى مرحلة استخدام ذهنه كوسيلة انتاج وكمصدر للرزق. بمجرد ان يحدث هذا حتى يصبح منتسباً إلى طبقة أخرى. بمجرد ان تستبدل اليد القلم بالفأس او الآلة. حتى يتحول صاحب هذه اليد، نفسياً واجتماعياً وسلوكياً. من طبقة مناضلة إلى طبقة انتهازية.

صورة قاتمة. أعرف هذا. ولكن حتى فى ظل هذه الظروف. قدمت جماعة المثقفين أفضل ما يمكن تقديمه.

يقول صلاح عيسى فى مقدمة العدد الثانى من مجلته «الثقافة

الوطنية» تحت عنوان: قبل ان يدركنا الطوفان: «ومع الاستقطاب الذى احدثته سياسة الصلح مع اسرائيل ازداد تشرذم جماعة المثقفين الوطنيين. إذ تخلى بعضهم فى لحظات عن قناعات بشروا بها سنوات طويلة ومع ان مراحل الاستقطاب عموماً هى أكثر الأوضاع ملاءمة لفرز الصفوف. إلا ان جماعة المثقفين الوطنيين كانت قد تعودت على صيغة التوازن الذهبى. التى كان عبد الناصر ربانها الماهر والمقتدر. والتى لا يستطيعها أحد سواه، أو بعده. فجاء عصر الاستقطاب ليتركهم عراة. لأنه يطالبهم بمواقف معلنة وباستقلال كامل فى الرؤى والتنظيم والحركة. وحين عجزوا عن ذلك وعجزوا فى ذات الوقت عن الانتقال إلى الضفة الأخرى، اضطربت خطواتهم. فآثروا الصمت أو الهجرة أو الاثنين معاً».

ان صلاح عيسى يضع يده على أهم مظاهر ذلك الخلل فى مواقف المثقفين المصريين وهو غياب، الضمير الجمعى. وفى غياب هذا الضمير فإنه من السهل افتراسهم واحداً بعد الآخر لصالح المشروع الامريكى الصهيونى.

ورغم كل ما يمكن ان يقال عن جماعة المثقفين فى الداخل. إلا ان ما قدموه حتى فى ظل هذه الظروف الصعبة، والقاسية، يصل إلى حد الاعجاز فى احيان كثيرة. والتركيز على الجوانب القائمة فى الصورة، الهدف الوحيد منه، وضع انجازهم العظيم فى حجمه الطبيعى. فهذا الانجاز انما يتم فى اكثر الاوقات صعوبة. وهذا ما يجعله يتعدى البطولات اليومية العادية.

يبقى الجانب المر من المرحلة. سؤال كنت أوجهه إلى كل صديق عربى. يفتح الملف الحزين. كنت أتساءل: ماذا فعلتم فى مواجهة ماتم. ؟ ليس السؤال دفاعاً عما جرى. ولكن ماتم. ابتداء من نوفمبر ١٩٧٧. وضع الكل فى مأزق: اما السير فى هذا الاتجاه. واما الطريق الآخر: حرب التحرير العربية الشاملة. كان يقال لى انها احدى فترات الظلام والتدهور. وان الوطن القائد عندما ينزل إلى القاع. فإنه يأخذ الكل معه إلى هذا القاع. ولكن السؤال كان يتحول إلى تساؤل. بمعنى ان طرحه لا ينتظر اجابة من أحد أبداً.

فى بعض أحيان رحلتى بحثاً عن مصر الاخرى. التى أوشكت ان تهبط منا إلى القاع. كنت اتصور ان هذه الرحلة لا مبرر لها. لا الرحلة إلى مرحلةمضيئة مضت. ولا الرحلة فى المكان إلى من يكتبون كلمة لا بدمائهم ولحظات حريتهم وتضحياتهم اليومية. ولكن يبدو ان الانسان مفروض عليه – فى بعض الاحيان – ان يصل إلى قلب اللحظة الراهنة من خلال رحلة تبدأ من بعيد.

سأتحدث عن القصص مرتين. فى المرة الاولى عن زمن وظروف كتابتها والثانية ظروف نشرها.

«شهادة الفلاح الفصيح فى زمن الحرب». خرجت من الاحساس بالمرارة والمهانة. التى ولدها ضرب العدو الصهيونى لمصنع أبوزعبل. تلك الايام التى سمينا فيها ما يقوم به العدو بانه غارات العمق. والتى وصلت حتى أقاصى الصعيد، الجوانى البعيدة. كانت غارات

العدوقد وصلت إلى القلب المصرى. إلى صميم هذا القلب محاولة من الاعداء لضرب الروح المصرية المتوثبة. التى عثرت على نفسها فى حرب الاستنزاف العظيمة. والتى تعد واحدة من الحروب العربية الاسرائيلية، حرب كاملة مستقلة. رغم انها لا تذكر كثيراً فى زماننا. وحتى عندما تذكر فهى لا توضع فى مكانها الطبيعى والصحيح. سمعت بخبر ضرب المصنع فى الخامسة مساء. وكنت فى حى شعبى فقير. ورغم ان الخبر يومها قدم بصورة حيادية. إلا انه استقر فى النفوس. نزلت الكلمات على البيوت القديمة، والشوارع التى فقدت شكل الشوارع، نزول المصيبة.

سافرت فى نفس الليلة إلى قريتى. «الضهرية». وهذه القرية، كانت تبدو بعيدة من قبل عن احداث المدن المتوهجة بالضوء الليلى. ولكن الامر هذه المرة يخص الوطن. بدت القرية تفتح عينيها وأذنيها وتشرب الحدث. وتتألم بطريقتها الخاصة. بدت البيوت الطينية والحقول المترامية الاطراف، تختزن المهانة ولا تضعها فى رصيد الصبر الايوبى القديم. ولكنها تجعلها الزاد والزواد فى رحلتها للحج إلى عتبات الثورة. ادهشنى رد الفعل، الذى كان شديد الاختلاف عن المدينة التى حضرت منها منذ قليل. وقدمت «شهادة الفلاح الفصيح فى زمن الحرب» التى نشرت فى مجلة «الآداب» البيروتية فى وقتها. ثم صدرت ضمن مجموعتى القصصية «طرح البحر». وكلما عدت إليها بعد ذلك. كلما عشت هذه الليلة، التى بدأت فى حى شعبى فى

القاهرة، وانتهت فى «الضهرية». ان الليلة لها طعم خاص جداً، يتحدد فى النفس بالمعانى الواضحة. وما تزال قادرة على اثارتها فى النفس حتى الآن.

«الحرب فى بر مصر» قصة قصيرة. وقد أصبح عنوانها عنواناً لرواية صدرت لى بعد حرب إكتوبر. المسافة بينهما – القصة والرواية – تبدو طويلة. فى القصة. وقفت أمام قضية. ربما كانت فردية إلى حد ما. ولكنها تجسد الكثير من ملامح الواقع المصرى، الذى كان متفجراً، ويبحث عن الشكل الذى يعبر به عن ذلك التفجر.

فقد حدث فى عام ١٩٧١ أن هرب من الخدمة العسكرية فى الميدان شاب وعاد إلى الضهرية. هو شاب لا يمكن أن يهرب من الميدان. قال لكل من قابله: إن الانتظار طال والعيون تآكلت من كثرة التحديق. قال إنه تعب من كثرة العبور بالنظرات. وإن الحلم بالعبور أصبح مكرراً لدرجة أنه فقد مذاقة الخاص. لم يكن مصرياً هارباً من الخدمة العسكرية ولا فاراً. ولكنه كان محتجاً. كانت عودته الاحتجاجية تقول بوضوح: إن الطريق الوحيد لتحرير التراب المصرى من الدنس الصهيونى لن يمر إلا عبر وضوء الدم. بل إن حكاية مصرى قالت لى: إن وضوء الدم لم يعد يكفى أبداً.

«الحرب فى بر مصر». تبدأ من الخامس من يونيو وتنتهى عند القبض على مصرى. ومعاملته باعتباره مجنداً هارباً من الخدمة

العسكرية. وتتحدث على طريقة الراوى الشعبى عن الشجاعة والرجال والدفاع عن حدود الوطن ضد الأعداء. والغريب أننى عندما جلست بعد ذلك سنوات لأكتب الرواية التى حملت نفس الاسم: الحرب فى بر مصر. لم أجد لبطلها من اسم سوى مصرى أيضاً.

«السفر». «فى الأسبوع سبعة أيام» خرجتا من تجربة شخصية جداً. جندت فى القوات المسلحة فى ديسمبر سنة ١٩٦٥. وكان من المفروض أن أسرح من الخدمة العسكرية فى يونيو ١٩٦٧. ولكن الذى حدث فى يونيو جعل التسريح من الخدمة يؤجل إلى ما بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣. فقد سرحت من الخدمة فى منتصف سنة ١٩٧٢. واستدعيت من جديد قبل حرب اكتوبر. السفر تجربة مقاتل من الريف يسافر من قريته إلى وحدته. ومن خلال السفر يطل الشوق القديم لليوم الذى سنحرر فيه الأرض. السفر نشرت فى احدى المجلات. وإن كنت لم أضمها إلى احدى مجموعاتى القصصية.

«فى الأسبوع سبعة أيام» غنائية مقاتل تم تسريحه من الخدمة العسكرية ثم استدعى قبل الحرب مباشرة. ويذهب إلى ميدان القتال ويعود زملاؤه إلى أمه لإبلاغها خبر إستشهاده.

عند كتابة هذا العمل. لم يكن فى ذهنى أكثر من نية المشاركة فى عمل وطنى. يوم أن أذيع البيان رقم واحد. فى الثانية من بعد ظهر السادس من اكتوبر، شعور الانسان انه إزاء حرب تحرير. رعشة أصابت الانسان. دوار خفيف. شعور من الصعب وصفه.

فى الأسبوع سبعة أيام. كانت رد الفعل الأولى للحرب. عندما اهتزت أعماق الانسان. بعد أن انتهيت من كتابة هذه الرواية القصيرة. كنت سعيداً بالغنائية الموجودة فيها. وكنت أردد بعض مقاطعها بينى وبين نفسى. ولكن الذى حدث أنه بعد فترة من الوقت، انفصلت عن عملى. وقامت بينى وبينه تلك المسافة التى تبدأ صغيرة، ثم تتسع وتجعل الانسان يرى العمل بعين أخرى. ترى فيه ما لم تره من قبل. الموقف الذى تغير لم يكن من الرواية القصيرة. لأن الموقف النفسى كان قد بدأ يتغير تجاه الحرب نفسها. الحرب التى جرت قبل حدوثها على أرض الواقع فى خيال كل منا. كانت هذه الحرب قد فقدت غطاءها العاطفى فى نفسى. ونبتت أول خيوط روايتى: «الحرب فى بر مصر».

كان بودى أن أضم روايتى «الحرب فى بر مصر» إلى هذا الكتاب. ولكنها عمل كبير من ناحية. ومن ناحية أخرى، لا تتحدث عن مصر الأخرى. مصر المتألقة المتوهجة بالكبرياء. فلا أحد يدرك عند قراءته لها: أين تنتهى مصر الأخرى، لتبدأ مصر التى نعيشها الآن.

تجفيف الدموع تتحدث عن فترة ما بعد الحرب. مجند شاب أصبح محارباً قديماً يبحث عن الشفاء. الذى لن يجده أبداً. فيها نفحات رومانسية ربما لا تناسب الحديث عن بطل. لكن هذا ما جرى فى القصة. وفى الواقع فانه قد تم استثمار حربهم وانتصارهم وقصص وحكايات بطولاتهم. وبقوا هم كالغائب الحاضر فى

مهرجان ما بعد الحرب. تجفيف الدموع نشرت فى مجلة أدبية وصدرت فى مجموعة قصص قصيرة، تحمل نفس العنوان.

نشرى لهذه القصص من جديد يعكس رغبتى فى اعادة قراءتها أكثر من مرة، كنت أحدق فى بطولة الأيام المفقودة. أصرخ فيها. أطلب منها سماعى. ان تكون الحائط الذى أسند عليه ظهرى المتعب. وأتساءل: هل يعود الذى مضى ؟! ولكن يبدو أن الاجابة على السؤال مستحيلة.

عموما هى ليست محاولة للانكفاء على الماضى ؟ أو محاولة الحياة على ضوئه فى مواجهة ظلام الحاضر. بقدر ما هى محاولة اعادة خلق كل لحظة من هذا الماضى. حتى اصله بالجانب الآخر لحاضرى بأى صورة من الصور.

لدى الآن الكثير من المشروعات. بعد أن وضعت يدى على حقيقة مصر الأخرى. لدى روايتى الطويلة «شكاوى المصرى الفصيح» والتى اكتب الجزء الأخير منها. للمرة الأخيرة فى هذه الأيام. ولدى رواية أخرى عن واقع ما بعد الغزو السلمى الذى قام به الأعداء لبر مصر. مادتى جاهزة وكل المطلوب أن يجلس الانسان ليكتبها. لا أعرف إن كنت سأسميها «الليل فى مصر» أو «شهداء اكتوبر يعودون هذا الاسبوع». ولدى عمل عن تجليات ظهور جمال عبد الناصر فى صعيد مصر. أعمال كثيرة. وأحلام ليست لها حدود. ولكن المأساة اننا نأكل انفسنا. نعمل أولاً لكى نعيش. ولعبة الواقع

الاجتماعى تقوم على ركلنا إلى أعلى. سلمة بعد أخرى. ويصبح مجرد الاستمرار فى هذا الوضع مأساة العمر الجميل. نلهث وراء لقمة العيش. وراء البريق الاجتماعى الخداع. ثم نعود منهكين متعبين ولا نجد فى داخلنا سوى البقايا فقط.

فى كل يوم يخرج الانسان من بيته وكأنه خارج من كهف قديم. ثم نعود إلى البيت، وقد لف القلب حزن هرم عجوز. والحزن متجدد مع كل يوم. هذا اليوم. أحزن لأننى شاهدت العلم الصهيونى، يدنس سماء القاهرة. ويوم آخر لأننى شاهدت جواز سفر صهيونى ملقى فوق مائدة فى أحد المطاعم أثناء خروجى من هذا المطعم وعندئذ أكتشف أنه حتى الهواء الذى كنت أتنفسه داخل هذا المطعم، منذ لحظات، كان هواء ملوثاً بالصهيونية.

لا يكفى أن يأسف الانسان فى بعض الأحيان لأنه يعيش هذه الأيام فى مصر. ولكنه فى بعض الأحيان يفكر فى الرحيل. ولكنه يتوقف ويتساءل: عندما يرحل الانسان. فالى أين؛ وإن رحل ماذا يأخذ معه؟ ! هل يأخذ أوراقه، أقلامه، مشروعات قصصه؟ هل يأخذ قليلاً من الزحام البشرى المحبب إلى النفس؟ هل يأخذ قليلاً من رائحة عرق الأجساد المتعبة؟ مع قليل من رائحة الأفواه التى مر عليها أكثر من يوم دون أن تأكل؟ يرحل الإنسان؟! كيف يكتشف الانسان أنه يريد أن يأخذ معه رائحة الأرغفة الساخنة الخارجة من الأفران فى الأحياء الشعبية. وقليلاً من الطوابير المزدحمة أمام

الجمعيات الاستهلاكية. وزحام البشر فى الأتوبيسات. يريد أن يأخذ النكات وعربات الكشرى والمقاهى. وأن يأخذ معه صمت الريف وخضرة الحقول. وغناء السواقى الذى يجرح صمت الليل. باختصار. يكتشف الانسان أنه لا بد وأن يأخذ مصر بكل ما فيها معه. وهكذا يبدو السفر المستحيل. ولا بد من البقاء هنا. واكتشف فى جلستى أننى لم أغادر أرض مصر منذ مارس ١٩٧٧ . وحتى قبل هذا التاريخ لم أتركها سوى مرتين فقط فى العمر كله.

ومعذرة لهذه الشهادة الشخصية. التى تحولت إلى مقدمة للقصص. . ولم اكن أريدها. وربما كانت المرة الأولى، وربما كانت المرة الأخيرة. التى أقدم فيها عملاً لى.

يوسف القعيد

الضهرية – بحيرة

القاهرة : ، مدينة نصر . ربيع ١٩٨١ .

شهادة الفلاح الفصيح
فى زمن الحرب

قال الفلاح الفصيح: حدث ما حدث فى السادس من ذى الحجة، سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف من بعد هجرة الحبيب. الخامس من أمشير سنة ست وثمانين وستمائة وألف قبطية. الموافق الثانى عشر من فبراير سنة سبعين وتسعمائة وألف من بعد ميلاد السيد المسيح.

يقول مؤلف هذه القصة: اليوم هو يوم الخميس: فى المساء، تحدثوا، تناولوا الأمر ضمن ما تناولوه من أمور أخرى، عامت الكلمات فى بحار اللغة. تحدثوا عن الخوف والشجاعة. والحياة والموت والبلاد البعيدة والغربة والحنين. وفى آخر الأمر – فى تلك الليلة من فبراير سنة ١٩٧٠ – اتفقوا على أن الأمور لم تعد تطاق.

ثم انصرف كل منهم لحال سبيله .. ذلك ما كان ..

إليكم القصة من أولها

١

يا أشرف من سئل ويا أكرم من أجاب

« وقد ترتب على هذه الغارة أن استشهد خمسون عاملاً مدنياً وأصيب تسعة وستون عاملاً باصابات مختلفة وقد تم نقل المصابين إلى المستشفيات فوراً. ثم ارتفع عدد الضحايا فى المساء إلى سبعين شهيداً .. »

« متحدث باسم وزارة الداخلية »

شهر فبراير من كل عام، تبدأ الحياة فى تغيير جلدها، تنبت أوراق خضراء صغيرة مغسولة بالندى، على فروع الأشجار العارية، تمتلئ الترع والقنوات الصغيرة بالمياه، تنبت فى الأرض نباتات القطن والبطاطس والبرسيم، يختلط لونها الأخضر الزاهى بسمرة الأرض الرصاصية، وعلى الجسور وفى الحارات يبدأ التراب الرمادى الجاف فى الأنتشار بين الطين الرصاصى اللامع بفعل الشمس.

فبراير من كل عام، تأتى الشمس الربيعية، بدفئها لكى توقظ الأشياء التى أماتها الشتاء الماضى، توقظ الأشجار وعواطف الناس ولمعان الحياة فى نظراتهم واحمرار الوجوه وتذكر الناس بانتهاء الشتاء وبمجئ الربيع حاملا معه الأمل والخلاص.

فبراير من كل عام، يحلو للرجال فى الضهرية أن يجلسوا فى

الصباح الباكر، بعد صلاة الصبح على المصاطب، فى الباحة الواسعة أمام مسجد سيدى عبد الله النشابى يتمتمون بختمة الصلاة، يتمتعون بدفء الشمس، يذيبون به الجليد الشتوى النائم فى الأعماق، يستنشقون الهواء الدافئ، يرفعون عيونهم نحو الشمس الشتوية، يبخرون البرد المتجمد فى الصدور ويستعدون لمجئ الربيع.

وعند ارتفاع الضحى، يذهبون الى الحقول، يتمطى كل منهم، يعلن كسله فى أسترخاء مشيته، وقد يحدث نفسه فيفضحه بخار أبيض يخرج من فمه مع الكلمات، وقد يقف ناظراً حواليه، الى زراعة جاره، وقد يرغب فى العمل فى الحقل، غير أن احساسه الداخلى بأن النهار فركة كعب، ومضة حياة قصيرة الأمد، يقعده عن العمل، وحتى الحقول فى هذه الفترة من السنة لا تحتاج الى عمل كثير، فتكون حقول الأرز قد زرعت وبذور القمح قد أختمرت فى باطن الأرض وقاربت وقت الأنبات، والبرسيم يملأ الحقول بلونه الأخضر الغامق، يسيل عليه لون زهوره البيضاء، ويتمايل مع هبات الرياح، التى تأتى عادة من الجنوب.

يذهب الرجال الى الحقول، يعودون فى آخر النهار، وآخر النهار هو وقت صلاة العصر، ولا يتناولون طعام الغداء فى الحقل، لقصر النهار، ويعودون، وكل منهم يدرك أن الربيع له رائحة فى الحقول، تتحدد هذه الرائحة فى أنوفهم، من العام للعام الذى يليه بجمله

أشياء، برائحة زهور النباتات، بليونة الأرض تحت الأقدام، وشكلها الغامق السواد، ورائحة اختمارها من كثرة ما شربت من مياه الأمطار. وعند قدوم الربيع، يسمعون طنين النحل، يطير فوق الأزهار فى الحقول، مجدداً أمام العيون، معانى الخصب والنماء، ويبدو للعيون، ساعة العصارى الطرية، دخان أزرق غامق، يختلط بنسمات الهواء الباردة، التى تحمل رائحة الشتاء خارجا من نار اوقدها أحدهم، أمام خصة لعمل الشاى، أو أشعال نار لشرب الجوزة.

وفى المساء يعودون الى منازلهم، أو الى الجامع، أو للجلوس على المصاطب، يتحدثون، كلمات موشاة بالوسن فى هذا الجو البارد، فى يومنا هذا، عاد الرجال ساعة العصارى وكل منهم يشغله ما سمعه من الراديو فى عصر اليوم، والرجال هنا، لا يقدرون على مواجهة الأمور البعيدة عن نطاق حياتهم بمفردهم. أنهم يلوكون المعانى فى أذهانهم ويستبقون الأفكار والصور حتى يجتمع الشمل فى المسجد أو على المصاطب كى يناقشوا الأمور معاً.

«أن مجموعة من طائرات العدو قامت بالإغارة صباح اليوم على مصنع» وفى لحظة سماع كل منهم النبأ من الراديو، أو من الجيران، وقف قليلا، واستراحت نظراته المتعبة الصبورة فى سماء فبراير الداكنة الزرقة، فوجد أن كل ما حوله يناديه بالصبر، صبر أيوبى طويل، وماذا يستطيع هو أن يفعل؟ لا يعلق على ما سمعه،

يستأنف كل منهم عمله، تعبر ذهنه فكرة محددة عن الموت، وقد يتذكر أن مقبرة العائلة لم تجدد منذ زمن طويل، وأنه لم يصل الصبح ولا الظهر، غير أنه فى نهاية الأمر يمسك فأسه، يجفف العرق الشتوى البارد على جبهته، ثم يرجئ التفكير فى هذا الأمر حتى يعود الى البلد.

فى الباحة الواسعة، أمام المسجد، أو فى عشة تعلب، يجتمع الرجال، يشربون الشاى، يدخنون المعسل، مشتركين فى ثمنه، مستمعين الى نشرة الأخبار والى حديث أهل العلم من رجال البلد، حيث يقدمون تفسيراً كاملا لما حدث لمصر الغالية هذا الصباح.

فى ليلة الجمعة، من كل أسبوع، تضاء مئذنة سيدى أحمد عبدالله النشابى بالنور حتى منتصف الليل، ويكثر ذهاب حاملى النذور الى مقام الجامع، نسوة وصبياناً، تحققت أحلامهم الباهتة، فأتوا يوفون بالوعود، وفى هذه الليلة يكثر الزحام عند الحلاق، وأمام الدكاكين، فهذه ليلة مبروكة.

عاد المرسى الى البلد، مثل كل الرجال وتفكيره موزع بين امرين، أولهما أن عيد الأضحى المبارك يوم الأثنين، باق علية ثلاثه أيام فقط، وقدوم العيد معناه التفكير فى شراء ملابس جديدة لأولاده وشراء لحوم العيد، فذبح الضحية ترف لا يقدر عليه إلا الاغنياء، ومعناه أيضاً أن يدبر نقوداً كى يعطى أولاده وأبناء أقربائه مصروفهم فى يوم العيد، وكان الأمر الثانى، هو ما سمعه المرسى عن ضرب مصنع أبو زعبل.

المرسى فى طريق عودته الى البلد، أنه يمر الان على مدافن القبط حملت إليه الريح صوت الشيخ محمود من فوق مئذنة الجامع، تناهت إليه الكلمات، حاول أن يلتقطها غير أن الريح بعثرت بقيتها، ولكنه أدرك ما كان يقال من فوق مئذنة الجامع. - يا أشرف من سئل ويا أكرم من أجاب.

توجه المرسى الى الجامع. توضأ وحمل بلغته، دخل الى صحن الجامع، وقف متجهاً الى القبلة، «وهو مصنع مدنى فى منطقة أبى زعبل»، سمعها وهو يقف فى الصف، إستمع الى الفاتحة، أيات من القرآن الكريم، ركع، سجد، جلس يختتم الصلاة، وقام الى ضريح سيدى أحمد النشابى، قرأ الفاتحة، وفى صحن الجامع وكان الظلام قد حل، سمع الرجال يسألون الشيخ محمود عما سمعوه.

- وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل.

قال الشيخ محمود ذلك وهو مغمض العينين، رافعاً رأسة الى سقف الجامع، ويده تعبث بحبات المسبحة، المرسى حائر، هبت عليه فى صحن الجامع نسمة هواء شتوية، فأحس بالشوق لحجرة نومه الدافئة، ولزوجته، غير أنه كان يود أن يستمع الى الكثير.

جلس الرجال فى دائرة حول الشيخ محمود، وكان الشيخ محمود يحكى حكايا قديمة، والجميع ينصتون إليه، وكانت النسوة داخلات خارجات، يضعن النذور فى صندوق بجانب المقام، نذور نذرنها فى أيام كرب وضيق ثم أتى الفرج، وكان لابد من الوفاء بالوعود.

أمام المسجد، سوى المرسى جلبابه، ركب مداسه، بصق على الأرض، وسار فى طريقه الى منزله، فى الظلام الشتوى الدسم، كان التماع العيون يشق ظلام الليل، على باب حارتهم، وقف قليلا، واضعا يديه فى فتحتى جلبابه، يرد السلام على المارين، ويعزم عليهم، وأبنه الصغير يقف بين قدميه، لا يظهر من الأرض، يحرك يديه ورأسه حركات عفوية:

– أبويا جه . . أبويا جه.

دهب المرسى هذا المساء الى المسجد، وهو يأمل أن يجد عند الشيخ محمود حلا لكل الأشياء التى يقف أمامها عاجزاً، غير انه ككل المرات السابقة، وهى كثيرة، ذهب، صلى، لف حول المقام، مر بيده على سترة الشيخ ثم مسح بها صدره وجبهته وقرأ الفاتحة، سأل، سمع الأجابة عن سؤاله وخرج وفى ذهنه شئ ما لم يكتمل، أحساس لا أسم له البتة، وكان هذا معناه أن يؤجل هذا الموضوع، أن يرجئه ثم يعلوه مع الأيام غبار، يبدأ الغبار بسيطاً، ثم يتكاثف ويتكاثف.

أحياناً، كان ما يتردد فى ذهن المرسى، ليس فتوى دينية، ولكنه كان يعتقد منذ الصغر أن الشيخ محمود لا بد وأن يعلم كل شئ، وأن هذا المسجد ليس مئذنة تشق الفراغ أمام ناظريه بل هو مكان يلجأ إليه كل الناس وقت الشدة.

وفى منزله، جلس فى المندرة، فوق الحصيرة وضعت له زوجته

مسنداً خلف ظهره، جلس أحد أبنائه فى حجرة، سأل عن أولاده، قام الى الزريبة وأطمأن بنفسه على مواشيه، ثم عاد، وكان طعام العشاء فوق الطبلية، جلس بين أولاده وزوجته، وكانت زوجته تستعد لعمل الشاى له، ثم تأكل فيما بعد، كانت تضع القوالح فى المنقد.

– أنا عايز كراسة وقلم رصاص يابا.

يهمهم المرسى بكلمات غير مفهومة، لا يرد، يشرب الشاى. يشربه بسرعة كى يخرج وهو يفكر فى بيع كيلة ذرة فى سوق يوم السبت كى يصرف من ثمنها فى يوم العيد.

– أنت ما لك ياسى المرسى؟

قالتها زوجته وهو يهم بالخروج، فى الخارج، صلى العشاء فى المسجد، ذهب إلى العشة، جلس وهو يترنم لنفسه وفى صوت واطئ بمقطع من موال حزين عن الأدهم، بطل الناحية كلها وحبيب قلبه، وتزحف حكاية الأدهم فى صدره كأنها أنين موجع، كأسى ينثال قطرة قطرة، فيدرك المرسى أننا كلنا راحلون، مسافرون فى رحم الليل، إلى بلاد الغربة والحزن.

سألوه فى العشة عن حاله وهم يدخنون، أبتسم، عزا سوء الحال إلى برودة الجو، شرب الشاى، نفخ بفمه بخار الشاى الأبيض، فانداح فى المسافة بينه وبين رفقة السهر.

– دا تلاقى اللى ماتوا فى المصنع ميتين واحد.

انثالت بقية التعليقات، كانت فى أيديهم جريدة يومية، غير ان

أخبارها كانت تتناول أموراً أخرى. «ايبان يقترح وقف اطلاق النار فى القناة»، «أمريكا غاضبة بسبب العمليات العسكرية المصرية»، «المشاة تعبر وتدمر». «الطائرات تدك مواقع العدو»، من الراديو الموضوع فى مكان مرتفع، تنساب أغنية خليعة، يرقص أحد الرجال بجسمه على أنغامها، وهو يدخن الجوزة، أنعقدت سحابات الدخان فى جو العشة، واختلطت ببخار الشاى الأبيض، مد المرسى يده من فتحة صغيرة خارج العشة. فلفحته نسمة شتوية باردة، فقرر الخروج، فى الخارج، فى الشارع الرئيسى، فى الضهرية، كان الليل والظلام والنجوم والسماء الداكنة السوداء، ولا يدرك المرسى لم فكر فى أعماق الظلام فى حروف اللغة التى تعلمها فى الزمان القديم، قبل أن يمنعه والده من الذهاب الى المدرسة، كى يساعده فى الحقل، أدرك أنه لا يذكر سوى حرفاً أو حرفين، وقف، ضيق عينيه وغير ملامح وجهه، رفع يده إلى خده فى محاولة للتذكر، غير أنه أدرك أنه مغروز فى طين الضهرية حتى قامته.

- لا بد من الصدام المسلح مع أسرائيل.

- دى حتمية.

توقف المرسى، مر به أثنان من شباب المدارس، لم يتبين ملامحهما فى الظلام، أدار كلامهما فى ذهنه وراح يتذكر ما سمعه بين كركرة الجوزة ومصمصات شرب الشاى فى العشة، وفجأة وجد ذهنه يتجه إلى أبنه الأكبر، التلميذ فى المدرسة الأعدادية، وجد

نفسه ينسى كل شئ، كل ما شغل ذهنه هذه الليلة، ورسم لهذا الأبن مستقبله، أدرك بذهنه البسيط أن كل شئ لم يذهب هباء، وأن هناك فى الدنيا الواسعة، أشياء تبلغ حد الروعة لم يعشها بعد، يتراكم الحزن والعناد والتصميم فى بئر القلب، طبقات فوق طبقات.

- ربنا يعوض صبر السنين خير.

قال المرسى، ولكن لنفسه.

وعلى باب منزله بمجرد أن فتحته زوجته، اندفعت موجة باردة من فتحة الباب، ودخل، كانت زوجته تقف وسط الدار بيدها لمبه جاز، ولمح فى وسط الدار ليفة وصابونة وغياراً جديداً له.

- أنت غبت ليه الليلة؟

قالتها زوجته بحروف ممطوطة، وبكلمات أنثوية لينة، غير أنه لوى بوزه، ولم يرد عليها، اتجه إلى الزريبة، هناك أقعى وسط مواشيه وتبول، ثم عاد إلى حجرة نومهم، حيث ينام الجميع، أن المرسى يخلع ملابسه الآن، كى يلبس الجلباب الذى ينام به على اللحم. الأيام تمضى بالمرسى، يزرع، يقلع، ينام، يحلم بالليل ببلاد مغسولة بالحنين، وفى الصباح، يصحو على واقع أيامه، ويغمس فى التراب خبزه، وفى المساء، فى لحظة الغسق الشاحبة، يقلع الدموع من جذورها.

- «وفى برقية لوكالة الأنباء الفرنسية». . .

كان يأتيه هذا الصوت الواهن من الراديو.

_ «على مصنع الشركة الأهلية للصناعات المعدنية».

وكان الراديو فى منزل بعيد عن منزله، حاول المرسى أن يحدد مكانه، وبعد قليل، بعد اجراء بعض حسابات مشوشة فى ذهنه، أدرك أن الصوت المتسلل إلى حجرة نومه، إنما يأتيه من راديو فى دكان البقال.

٢

جمهرة الرجال

« ان هذه الغارة التى شنتها اسرائيل على المصنع المدنى وقصفته بالرشاشات والنابالم، تعتبر استمراراً خطيراً فى تصعيد اسرائيل لعملياتها الحربية لتشمل كل الأهداف المدنية والمدنيين..»

« من بيان المتحدث الرسمى »

المساء وقمر الليلة السادسة من الشهر العربى، هلال صغير، خط من اللون الرمادى المشبع بحمرة قانية، عند الأفق البعيد، وسط السماء الداكنة الأشجار، تتمايل مع هبات النسيم ورائحة الدفء، تشع من البيوت والناس، تقفر الحوارى، تمتلئ وتمر فتاة صغيرة، تحمل مقطفاً ملوثاً تجمع فيه، رغم البرد والهواء المشبع برطوبة السماء، روث البهائم المتجمع فى الحارات.

النور أمام عشة تعلب مستطيل الشكل، يقسم الشارع نصفين، فجأة يظهر الناس من الظلام، تتضح ملامحهم فى النور، يفتحون عيونهم، تتسع الأحداق، تحدق فى مصدر النور، ثم يمضون بنفس الطريقة التى ظهروا بها، يبتلعهم الظلام مرة أخرى، فلا يدرى أحد أين ذهبوا، ولو حدق أحد الجالسين فى داخل العشة بعينيه، محاولاً أن يتتبع أحداً ما، لما استطاع داخل الظلام أن يميز أى شئ.

وفى خارج العشة، فى الحارة الطويلة الملتوية، يختلط الظلام بلسعات البرد، فيكونان شيئاً واحداً.

أن عشة تعلب هذا المساء مزدحمة بالرجال، ليلة الجمعة، وكل الرجال يودون أن يسهروا حتى منتصف الليل، يشربون الجوزة، يصعد الدخان حتى النافوخ، يشعر الرجال بدوار لذيذ، تسرح النظرات مع الدخان الأزرق الغامق، عندما تسبح طياته بجوار الكلوب المتوهج. وبعد الكرسى الثالث، يصيب الجسم خمود، وترتخى الأعصاب وتتفكك عظام الجسم، وتخرج الكلمات بغير ما ارادة من أحد لينة مسترخية كسولة، ويرفع الرجل يده ثم يحاول أن يطبق أصابع يده فتصيبه رعشة، تتقارب الأشياء، تتباعد وتهب نسمة ليلية من جوف مساحات الظلام فتصل إلى الأنوف باردة طرية.

يجلس الغريب وسط الرجال أسمه الحقيقى زين العابدين، سماه الناس مرة بالمهاجر وأخرى بالغريب، وهو من أهل القناة هاجر بعد حرب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، واستقر مع جماعته - زوجته وأولاده وأمه الكبيرة - فى الضهرية

عندما يتحدث الغريب بصوته الرفيع ولهجته المميزة، فأن الكل يدرك أن لحديثه هو بالذات وقعاً خاصاً، ومعنى متفردا. لقد خالطهم الغريب منذ عامين فى حياتهم، أصبح جزءاً من أهل البلد. كانت له حياته الخاصة. ذكرياته، ماضيه، بلده الذى هاجر منه إلى بلده.

وفى عشة تعلب، يتناولون كل شئ بالحديث. كل ما يطفو على سطح الحياة اليومية فى الضهرية، كل الأشياء التى تحاول أن تخدش رتابة الحياة ولا مبالاتها، والحديث فى عشة تعلب أصبح عادة محببة لكل الرجال، لدرجة أن كل رجل وهو يعيش حياته العادية، يسير فى حوارى البلد، أو شارعها الرئيسى، وهو يصلى فى المسجد أو يعمل فى الحقل، فأن كل ما يشاهده، يختزنه فى ذهنه، يؤجله لحين لقائه مع أصدقاء الليل فى العشة، كى يحكيه لهم وفى كل ليلة يتحدثون عن الجمعية التعاونية، ودور الرى، وأثمان المواشى فى السوق وقصص الغرام والخصومات، ومواعيد الصلح بين المتنازعين. وبين الحديث والصمت، تدور الجوزة بينهم صامته، لا تعلق على أى شئ ولا تدلى برأيها فى أمر من الأمور، بل هى المنصت الوحيد فى كل ليلة لكل ما يقال فى العشة.

- انما أبو زعبل ده فين يا اولاد؟ ..

عند سماعهم السؤال رفع بعضهم يده إلى رأسه، وفكر قليلاً، وراح يتذكر، يستخرج الصور الضبابية من قاع قلبه المعتم، وتساءل هل زار هذه البلدة من قبل، هل له فيها أقارب، ومن الضهرية أناس رحلوا عنها، تركوها وسافروا إلى البنادر، عملوا فى المصانع، وهناك حلقوا شواربهم، ونعموا ذقونهم، وساووا شعر الرأس، والقوا بكلمات الغزل الخجولة على الفتيات الناعسات عند نواصى الشوارع، تحت أعمدة النور فى الليل الشتائى البارد، والبنادر التى

دخلت حياة الضهرية كثيرة: كفر الدوار، كفر الزيات، دمنهور، الأسكندرية، طنطا حيث سيدى أحمد البدوى، دسوق، شى للّه يا سيدى أبراهيم يا دسوقى، هكذا يقول الناس عند سماعهم أسم دسوق،

- أما أبو زعبل دى فيها السرايا الصفرا.

تذكروا جميعاً. أنهم فى الزمان القديم، بالتحديد فى السنة التى باعوا فيها قنطار القطن بخمسين جنيهاً، فى هذه السنة أرسلت من الضهرية زوجة شيخ البلد التى أصابها مس، وقالوا أن النداهة نادتها وخرجت بها، لتريها أبنها البكر الغائب، وذهبت بها فى الليل إلى شاطئ النيل ثم تركتها على الشاطئ تماماً، وقد كانت تتأهب للنزول بها إلى قاع البحر، وقالوا أنها تركتها وهربت، لأنها سمعت رجالاً قادمين على جسر البحر.

- لا دى راحت الخانكة. .

- كلامه صحيح، دا أنا يوميها سألت سواق العربية اللى خدتها. .

ولم تطل حيرتهم، إذ قال الغريب

- على العموم أبو زعبل دى، على خط المترو بتاع حلوان.

وصدق على كلامه شاب من أهل البلد سبق ان عاش سنوات فى مصر أم الدنيا، فترة تجنيده فى الجيش. وعاد بعد ثلاث سنوات من هناك، وفى يده ساعة وفى جيب جلبابه نظارة يقسم أنها من العريش بثمانية جنيهات مصرية، وفى القلب منه قصة حب قديمة

ويتحدث أحياناً وهو فى الحقل بعيداً عن البلد، كما يتحدث أهل البندر فى مصر والأسكندرية.

- لا ياراجل أنا أفتكرت أبو زعبل دى على خط كوبرى الليمون.

رانت علهم فترة صمت وأدرك بعضهم وقد يكون له الحق فى ذلك، أن مصر التى يسمونها فى الراديو لسبب ما القاهرة شئ لا وجود له بالنسبة لخريطة حياتهم، وأن أبو زعبل هذه، وان كانت جزءاً من مصر الغالية، فانهم لا يدركون بشكل قاطع معنى ما حدث، وانهم جميعاً يدركون فى هذه اللحظة أن قاموس حياتهم دخلته كلمة جديدة، مثل كلمات العائدين من البنادر أو تلاميذ المدراس. أو نداءات باعة الصحف والمجلات فى التوفيقية وكفر الدوار.

قام أحدهم من مكانه، وقف فى منتصف العشة، رفع يده كأنه سيخطب فيهم خطبة طويلة، وتصور بعضهم أنه يستعد للذهاب إلى منزله مبكراً، ولكنه بعد أن وقف وتطلعت لهم عيون الجالسين، فبدا لهم طويلاً لحد السماء، أقسم لهم بالطلاق ثلاثة، شافعى ومالكى وأبو حنيفة، بصوت عال، أن أبو زعبل هذه فيها سجن كبير، أكبر من سجن المديرية فى دمنهور ألف مرة، وأنه ذهب إليه لزيارة قريب له هناك كان محكوماً عليه بالسجن، وأنه شاهد المصنع بنفسه ومما يذكره الآن ولا يمكن أن ينساه، أنه أشعل سيجارته من أحد العمال، عمال المصنع الذى ضرب اليوم، لعدم وجود كبريت معه، وأنه قال للعامل: «تشكر يا أخ» ورفع يده إلى

جبهته، فرد عليه العامل رافعاً يده هو الآخر: «أيها خدمة يابلدية» قرر كل منهم لنفسه، كل بطريقته الخاصة، أن العالم واسع وكبير وملئ بكافة الأشياء التى لم يعيشونها بعد، غير أن الأمور قد تغيرت، وسرى بين الجميع حماس جديد، عندما قال شاب صغير أن أحمد أسماعيل يعمل فى هذا المصنع.

– مصنع الشركة الأهلية للصناعات المعدنية.

– وهو مصنع مدنى فى منطقة أبو زعبل.

قال الشاب الصغير.

تمتم أحدهم: «ربنا يرحمه» غير أن الجميع أسكتوه:

– «فال اللّه ولا فالك»

وراح كل منهم يتذكر آخر مرة رآه فيها، وآخر مرة سمع صوته، وآخر مرة زار أحمد اسماعيل البلد، وأقسم أحدهم بالمصحف الشريف، أن أحمد أسماعيل فى آخر مرة زار فيها الضهرية، كان يفكر فى بناءة مقبرة لعائلته فى الضهرية، خوفاً من أن يدفن فى بلاد الغربة، وأن أحمد أسماعيل نظر يومها ناحية المقابر، وقال أن من يريد أن يبنى عليه بدار البقاء هناك، وأشار بيده ناحية المقابر، عليه بدار الخلود، فكل شئ زائل ولا دائم إلا وجه اللّه.

درات مناقشات، تحول الجميع بين مصدق ومكذب، وأقسم أحد الخفراء أن أحمد أسماعيل يعمل فى مصنع شبرا الخيمة، وأن شبرا الخيمة تبع زمام بنها.

– إنما الضرب كان بطيارة فانتوم..

ربنا يهدهم..

وتذكروا أن هناك طائرة تعبر سماء البلد فى منتصف الليل، وأخرى عند الفجر، فسرت فى أبدانهم قشعريرة وقف لها شعر الرؤوس، وتذكر كل فلاح منهم أنه بمجرد أن تمر طائرة فوق رأسه تطعن الفراغ العذب، يقف مستنداً على فأسه، ويرفع رأسه ناظراً إليها، وتذكروا أيضا أنه لا يوجد عندهم اقدس من السماء وأنهم دائما وخاصة فى الأوقات العصيبة، يرفعون اكفهم إليها ويهتفون بعيون مغسولة بالأسى، بكلمات راعشة من القلب. تذكروا هذا، فتعجبوا، لم يتكلم أحد منهم، كانت المسألة صعبة بالنسبة لهم، كيف تصبح السماء، ذلك الفضاء الأزرق الهادئ، مكاناً يأتى منه الموت والمجهول، وتأتى منه أيضاً الرحمة والعطاء وكل الخيرات، وعندما عجزوا عن الأجابة عن هذا التساؤل، مصمصت شفاههم، واستسلموا، وقال الرجال لأنفسهم، دونما كلمات، بل وباحساس ساذج، مجدول من أيامهم الجديبة، وأحلامهم التى بلون التراب، ليرحمنا اللّه، فان هذا زمان عصيب.

الليل يتقدم، والغريب يستريح فى جلسته، يتحدث بصوت هامس، عن الغارات، يشرح لهم معنى أن تكون هناك غارة، فى مكان ما، معنى أن تتهدم البيوت، أن يفضح سرها، أن تتحول غرف النوم والجلوس إلى أشياء مستباحة، أن تبدو الجدران الداخلية

للبيوت، بعد الهدم، بكل ما تحمله من طابع الحياة البيتية، سناجاً أسود على الحيطان، عبارات صغيرة دونها الأطفال بعد ذهابهم إلى المدارس الابتدائية، رسوماً ساذجة، معنى أن تفقد المدينة مبرر وجودها، أن يقتل الرجال، يموت الأطفال والنساء والشيوخ فى لمح البصر، فى أقل من ومضة عين، بمجرد أن تعلن صفارة الأنذار بدء الغارة، يبدأ منطق جديد، شكل آخر من أشكال الحياة، الجرى، أطفاء النور، الفزع فى العيون، اختفاء علاقات الناس ببعضهم البعض، فقدان الأشياء أحجامها الطبيعية، ويحاول كل فرد فى نهاية الأمر، أن ينجو بجلده.

تداخلت الأمور. تركت كلمات الغريب فى الصدور احساساً سائلا بالحزن، وفى آخر الليل، تحدثوا عن أمور أخرى، ودارت بهم الكلمات، وكان تعلب، خلال هذا الوقت، يدور بينهم بسرعة، وتعلب يعمل بالنهار فى أعمال مختلفة، سمكرى، يؤجر دراجات لتلاميذ المدارس، يطلى البيوت بألوان مختلفة، ويكتب عليها عبارات من عنده، ويرسم أشكالاً حلوة، ولكنه رغم كل هذه الأعمال، ومهما كان عمله بالنهار، فما أن يأتى الليل، حتى يشعل الكلوب ويحمله إلى عشته ويستعد للسهر. ويقول أهل البلد، أن سهره فى العشة، ليس من أجل كسب العيش، بقدر ما هو مزاج خاص، فهو ليس فلاحاً، ولكنه أبن مزاج، وهذا هو سبب مواظبته على السهر فى العشة، أن تعلب يعرف أسرار البلد كلها، كل الحكايات الصغيرة، وهو لم

يتزوج ولا يفكر فى الزواج، رغم كل ما يقال عنه من حكايات بسبب عدم زواجه.

خرج الغريب من العشة، فى الشارع، كان الليل والسماء والنجوم، رفع عينيه ناحية السماء، أدرك أنه تفصله عن بلده سبعة بلاد وسبعة بحور وسبع سنوات عجاف من السفر والترحال، وهو فى الطريق إلى منزله، توقف لشراء عشاء أولاده، وتمثلت له أيامه، مكاتب التهجير، مرتبات المهجرين من المحافظة، وشعر بحنين يلذعه فى أعماقه لبلده، البحر وأكل السمك والأرز المفلفل، دفء المقاهى الليلية، فى ليالى الشتاء، المثقلة ببخار الشاى ودخان الجوزة، صوت النرد والدمينو، وأوراق الكوتشينة مكسب كل يوم، وأنفاق كل ما يأتى به البحر يومياً، اللعب فى المقهى حتى الثانية صباحاً، البحر والصيد والجنيات والملابس المبتلة ورائحة السمك والشباك العالق بها قشر السمك، ثم الحياة فى الضهرية بدون عمل، حيث يتساوى الغريب بزوجته، النوم ليلا فى منزل مؤجر لا يشعر الغريب بداخله، بتلك الألفة التى يشعر بها الأنسان فى منزله، تلك العلاقة الخفية التى تربط الأنسان بالأشياء التى تكون المنزل، الجدران والأثاث والأرض والسقف، الجلوس فى الضحى أمام داره وقد ذبلت عيناه من الوسن، فى الصباح ينتظر أن ينتصف النهار، وعند الظهر يتلهف على قدوم الليل، وفى الليل يكون اللجوء إلى السرير مبكراً أمراً له خطورته.

حمل الغريب طعام أولاده، عاد إلى منزله فى آخر البلد، وفى صدره كان الحنين يكويه إلى بلده، وعلى طرف لسانه انزلقت كلمات رتيبة، مملة، همس، أن الديار البعيدة، أشتاقت إلى أهلها.

وفى آخر الليل قام تعلب، عد نقوده، دلق مياه الجوزة، لم عدة الشاى، أطفأ النيران والكلوب. وكانت حكايات هذه الليلة، الشهداء، مراهنات الرجال على أبى زعبل، الطائرات، سماء الله العالية، كل هذا، كان يعنى بالنسبة إليه، أن ما شربه زبائن عشته هذه الليلة، أكثر من مشاريب أية ليلة أخرى، وبهذه العلامة فقط، سيظل يذكر هذه الليلة لأيام قادمة، وقبل أن ينتهى كل أعماله، عد الحساب الشكك عند زبائنه.

– وأدى نومه..

ثم أستعد للنوم، وعندما وقف تماماً، ومد ظهره، ووضع يده على سلسة ظهره فى المنتصف، شعر بالآلام فى عظام ظهره، رفع عينيه نحو السماء، فأدرك أن الليل، ليل الريف، ليل الشتاء الطويل، ذلك الليل المشبع برائحة الرطوبة وأريج اختمار الأرض، ذلك الليل، ينتصف الآن.

٣

البروجى يعزف نوبة وداع

« وقد تم على الفور اخراج جثث الشهداء، ونقل المصابين إلى مستشفيات الخانكة المركزى والمرج وهليوبوليس، حيث أعلنت حالة الطوارئ فأجريت عمليات جراحية عاجلة لاسعاف المصابين.

وبعد ذلك تم اخلاء المصنع، والمنطقة المحيطة به خوفاً من القنابل الزمنية التى أسقطت الطائرات الاسرائيلية عدداً منها ».

« من وقائع ذلك اليوم »

شهر أمشير الذى يقول عنه الناس هنا لبعضهم البعض: «بكرة ييجى لك أمشير، يخلى عضمك على الكوم نسير» يغطى برده أطراف المنطقة. عند أنتصاف الليل، يدرك وهدان، شيخ خفراء البلد، أنه قد وصل إلى منتصف رحلته، نصف مسافة الترحال، سفر كل ليلة، حيث لا أمل فى الرجوع، وشاطئ الوصول، حيث الحنين والأشواق والأسى، الأهل والأحباب، يبدو بعيداً، بعيداً.

فى الليل، يبتلع شيخ الخفراء المسافات الطوال ويطوى فى حناياه الأميال، ويسافر على جناح الحزن إلى قبر الحبيب الغالى، العلامة، حجرة صغيرة مدفونة فى الأرض، هنا قبر الشهيد، أستشهد فى معركة، بتاريخ، ناحية، ويعود مسرعاً، على أنغام نوبة الوداع

حمل الغريب طعام أولاده، عاد إلى منزله فى آخر البلد، وفى صدره كان الحنين يكويه إلى بلده، وعلى طرف لسانه انزلقت كلمات رتيبة، مملة، همس، أن الديار البعيدة، أشتاقت إلى أهلها.

وفى آخر الليل قام تعلب، عد نقوده، دلق مياه الجوزة، لم عدة الشاى، أطفأ النيران والكلوب. وكانت حكايات هذه الليلة، الشهداء، مراهنات الرجال على أبى زعبل، الطائرات، سماء اللّه العالية، كل هذا، كان يعنى بالنسبة إليه، أن ما شربه زبائن عشته هذه الليلة، أكثر من مشاريب أية ليلة أخرى، وبهذه العلامة فقط، سيظل يذكر هذه الليلة لأيام قادمة، وقبل أن ينهى كل أعماله، عد الحساب الشكك عند زبائنه.

– وأدى نومه. .

ثم أستعد للنوم، وعندما وقف تماماً، ومد ظهره، ووضع يده على سلسة ظهره فى المنتصف، شعر بالآلام فى عظام ظهره، رفع عينيه نحو السماء، فأدرك أن الليل، ليل الريف، ليل الشتاء الطويل، ذلك الليل المشبع برائحة الرطوبة وأريج اختمار الأرض، ذلك الليل، ينتصف الآن.

٣

البروجى يعزف نوبة وداع

« وقد تم على الفور اخراج جثث الشهداء، ونقل المصابين إلى مستشفيات الخانكة المركزى والمرج وهليوبوليس، حيث أعلنت حالة الطوارئ فأجريت عمليات جراحية عاجلة لاسعاف المصابين.

وبعد ذلك تم اخلاء المصنع، والمنطقة المحيطة به خوفاً من القنابل الزمنية التى أسقطت الطائرات الاسرائيلية عدداً منها » .

« من وقائع ذلك اليوم »

شهر أمشير الذى يقول عنه الناس هنا لبعضهم البعض: «بكرة ييجى لك أمشير، يخلى عضمك على الكوم نسير» يغطى برده أطراف المنطقة. عند أنتصاف الليل، يدرك وهدان، شيخ خفراء البلد، أنه قد وصل إلى منتصف رحلته، نصف مسافة الترحال، سفر كل ليلة، حيث لا أمل فى الرجوع، وشاطئ الوصول، حيث الحنين والأشواق والأسى، الأهل والأحباب، يبدو بعيداً، بعيداً.

فى الليل، يبتلع شيخ الخفراء المسافات الطوال ويطوى فى حناياه الأميال، ويسافر على جناح الحزن إلى قبر الحبيب الغالى، العلامة، حجرة صغيرة مدفونة فى الأرض، هنا قبر الشهيد، أستشهد فى معركة، بتاريخ، ناحية، ويعود مسرعاً، على أنغام نوبة الوداع

وكلمات العزاء، وصورة الأخ الحبيب وذكرياته، وصورته، وأشيائه الخاصة.

فى غرفة السلاحليك، وهو يشرف على تسليم الخفر البنادق، أخبره كاتب التليفون بالأمر كله.

– والله دا حرام ياشيخ الخفر، أبو زعبل مرة واحدة، هيه الناس ذنبها إيه؟..

وقال الكاتب كلاماً آخر، لا يذكره شيخ الخفراء، عن غارات العمق وأهدافها السياسية، وأنها وسيلة ضغط لا أكثر ولا أقل، وأن هذه هى أول مرة تضرب مناطق فى داخل مصر بهذا الشكل، وأننا لن نسكت على هذا مهما حدث.

لم يعلق عليه بكلمة واحدة، استراحت الكلمات بينهما، ذهب إلى منزله ثم عاد بعد قليل، كى يمر على الدرك، ويعود ليتناول عشاءه، وهدان يخرج من منزله، يمسح حارات البلد، وشارعها الرئيسى بخطوات لينة بطيئة، يمس الأرض من تحته مساً رقيقاً، ينبه على خفرائه بكلمات، كل ليلة، أن يكونوا يقظين، فلا أحد يعرف ما يحمله الليل لهم.

يعود وهدان إلى منزله، يجتمع الشمل، بعد يوم من العمل فى الحقول، يجلسون حول الطبلية، يأكلون، ينظر وهدان إلى أبنائه، منذ أن مات الحبيب الغالى، وهو أكثر أحساساً بأولاده، بقيمة كل منهم، بمعنى أن يمرض، أن يقول فى الليل الطويل آه، معلناً عن ألمه.

«القاهرة، صادر فى، إذا لم يصل يرد إلى إدارة، التابعة لوزارة الحربية، السيد وهدان عبد السميع عبد الله، الضهرية – مركز ايتاى البارود، مكتب بريد التوفيقية – محافظة البحيرة».

قالوا له، وكان الوقت ساعة الضحى، أن على الباب أناساً غرباء يسألون عنه، خرج وكان يرتدى قميصاً قصيراً على اللحم، حيث كان يستعد للنوم، خرج عارى الرأس، حافى القدمين، ومن عينيه تطل نظرة مستطلعة، دهشة، وعلى الباب كان هناك ضابط، ومعه رجل آخر.

– لا مؤاخذة يا أفندم..

دخل وهدان إلى منزله بسرعة، كى يرتدى ملابسه، فلا بد وأن الضابط يحتاجه فى عمل رسمى، وفى داخل المنزل حاول أن يرتدى ملابسه بسرعة، غير أنه فوجئ بالضابط يدخل عليه.

– احنا عايزينك فى موضوع خاص..

وسط الدار، خلع الضابط كابه، جلس على الحصيرة بعد أن خلع حذاءه الأسود، وهدان يحلف عليه أن هذا لا يصح، يحضر مفتاحاً يفتح به المندرة، يفتح نوافذها، يدخلون، يشمون رائحة عفنة، رائحة هواء راكد اختلط برائحة الطوب والجدران والأرضية التى لم تكنس منذ زمان بعيد.

– أهلاً وسهلاً..

يجلس الضابط..

– ازيك يا شيخ وهدان. .

تقال كلمات جافة، لا تقرب بين الناس فى مثل هذه المواقف، بل انها تقال لتبديد وحشة الصمت الزاخر الناتج عن لقاء الناس للمرة الاولى.

– والله احنا جايين بخصوص فؤاد أخوك الصغير.

رمشت عيناه فى دهشة ممزوجة بنوع من الخوف، رفع عينيه نحو الضابط واستعجل الشاى من الداخل.

– خير ان شاء الله. .

– كله خير ياحاج. .

أخبره الضابط بالأمر، ثم وقف، أخرج من جيبه مبلغاً من المال وأخرج خطاباً صغيراً ناعم الملمس، وطلب منه التوقيع على ورقة معه باستلام المبلغ، وأن يوقع مرة أخرى باستلام الخطاب الخاص بأخيه فؤاد، كتب اسمه مرتين بحروف متآكله، وضع المبلغ فى جيبه، وأطبق يده بقوة على الخطاب الصغير.

– البقية فى حياتك، شد حيلك. .

– حياتك الباقية، الشدة بالله. .

خيل إليه ان كلمات الضابط تصل إليه من بعيد، أو من خلال تليفون العمدة، كانت الكلمات خافتة، على الرغم من أن الضابط كان يفتح فمه أمام عينيه على اتساعه بالكامل، وميز منها كلمات عن مصر وحتمية المعركة، وان النصر فى هذه المعركة هو الممكن

الوحيد، وان مصر الغالية فى حاجة إلى رجالها، فى هذا الوقت بالذات.

– طيب السلامو عليكو. .

مد يده لهم، خرج معهم حتى آخر الحارة، وفى آخر الشارع الرئيسى ودعهم، وضع على شفتيه ابتسامة مرة، ورأى وهدان فى وقفته، ظل يده المرفوعة يتموج على الأرض المبلطة فى ليونة سائلة، ان وهدان يعود الآن إلى منزله، فى جيبه المبلغ، وفى يده الخطاب وقد تلوثت أوراقه، وجلس فى المندرة.

قالت زوجته: همه كانوا عايزين ايه يا أبو فؤاد؟. .

ما كان فؤاد ابنه، بل كان أخاه الصغير، ولكنه كان أحب إليه من أبنائه، وكان فؤاد نفسه لا يناديه إلا بـ «بيابا» فهو لا يعرف له والداً سواه، كانت زوجته تقف على باب المندرة، وقف وهدان وقد استراح المعنى الطارئ فى نفسه، واستدار، وأخذ لنفسه شكلاً محدداً، خرج من باب المندرة، وأصبح فى وسط داره، كان بالحارة المواجهة له أطفال صغار تجمعوا بعد خروج الضيوف.

– فؤاد مات. .

«بعد التحية. . ينعى لكم وزير الحربية، استشهاد شقيقكم، فى معارك يوم، بناحية»، حديث زوجته، تفرق الأطفال، كل يود أن يحمل الخبر الحزين إلى أهله، «كما وانه نرجوكم التوجه إلى إدارة، بالعنوان الآتى: وذلك لتسوية كافة مستحقاتكم».

وهدان يتناول طعامه الان، ابنه يقول له ان مصنع أبو زعبل، قد ضرب، وانه قد استشهد سبعون عاملاً، لم يرد عليه، رفع عينيه ناحية جزء من السماء يبدو من ثقب فى وسط الدار، غير انه كان يود أن يسأل ابنه: ألم يكن من الممكن أن يحمل أحد هؤلاء الشهداء رسالة إلى فؤاد، كلمة واحدة، ولكنهم ذهبوا، استشهدوا، دون أن يودعوا الأهل والأحباب، فى غمضة عين، فى الصباح، وتركوا الدموع ولوعة الفراق والأحزان، واشترك اولاده الصغار فى مناقشة عن اسرائيل والحرب.

فى اليوم التالى، بعد العزاء والدموع والأحزان، قرر وهدان أن يذهب إلى مصر، قد يكون فؤاد هناك، فى مكان ما.

– يمكن تكون غلطة فى الاسم.

سافر على جناح أمل صغير، سافر وترك الأهل والأحباب فى الضهرية، مكسورى القلوب، عاد بعد يومين، وهو لا يود أن يحكى قصته لأحد، وما كان يخيفه وهو فى طريق عودته من مصر أن يتوه الاسم، فؤاد عبد السميع عبد اللّه، فى زحمة الأسماء، أن يذوب مع أول قطرات المطر الشتائية. أن تنام الجراح فى القلوب، أن تتوسد الحنايا، وفى مصر أم الدنيا، يقسم وهدان لنفسه، وليس لأحد سواه، انه شاهد جنازة فؤاد، وكان أهل مصر كلهم فى الجنازة، وكان هناك مندوب عن الرئيس، وهو ليس متأكدا من هذه النقطة، فقد يكون الرئيس بنفسه، سارت الجنازة، جسد الحبيب فوق

المدفع،حوله علم مصر، والناس فى حزن عظيم، الخطوة الجنائزية الرتيبة، الرجال يسيرون بنظام. يقسم وهدان لنفسه فى الليل أنه سأل أحد الرجال،وكانوا مثل يوم الحشر، عن صاحب هذه الجنازة، فنظر له الرجل باستغراب شديد، ولامه على أنه لا يعرف صاحب الجنازة:

– دى جنازة الشهيد فؤاد عبد السميع عبد اللّه يا بلدية..

وفى النهاية عزف البروجى نوبة وداع، يقول وهدان ان جسمه قد أصابته قشعريرة، وان شعر رأسه قد وقف، عند سماعه نوبة الوداع. هتفوا، «نموت وتحيا مصر» ثلاث مرات.

بعد عودته من مصر، قرر ان يدفن فؤاد فى قلبه، أن يكفنه برموش العين، لن يغسله، فالشهداء أطهار، ثم يدفنه فى حبة القلب.

ذهب وهدان ذات صباح إلى بناء البلد، أخذه معه إلى الجزيرة، اشترى طوباً أحمر ورملاً، وفى اليوم التالى، ذهب إلى كفر الزيات، واشترى أسمنتاً وجيرا، ثم ذهب إلى المقابر، الناحية القبلية، حيث بنى مقبرة جديدة، وفرشها بالحناء، بناها على مكان مرتفع، وعندما سأله الناس، قال لهم ان هذا هو قبر المرحوم وانه وان كان قد دفن فى مصر، فإن الملائكة ستحمله ذات ليلة إلى هنا. وأقسم لهم ان ذلك سيحدث، وان فؤاد بنفسه – يرحمه اللّه – قد أتى إليه فى المنام، وطلب منه ذلك، وقال لهم أن الشهداء مثل الأنبياء وأولياء اللّه الصالحين تماماً.

– عليهم الصلاة والسلام. .

وبعد أن طلا القبر بلون رمادى. وزينه، كتب عليه: «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرام. هذا قبر الشهيد». ثم ترك القبر مفتوحاً.

وفى الصباح، كان وهدان يذهب إلى حجرة التليفون، يشرف بنفسه على تسليم البنادق، يضعها فى السلاحليك، يوزع النوبتجيات على الخفر، يستقبل العمدة، ثم يذهب إلى المقابر، يقف أمام قبر فؤاد، يرفع يديه، يقرأ الفاتحة بصوت مسموع، ثم يقبل كفيه، ويمر بهما على وجهه وصدره، وهو يتمتم بأيات من القرآن الكريم، ثم ينظر داخل المقبرة. ويتراجع إلى الوراء بظهره قليلاً، ثم ينظر داخل المقبرة، وينحنى ويعاود النظر، يتأكد أن القبر خال، وان الجثة لم تحضر بعد، ويعود إلى الضهرية.

الضحى، نسمات الصباح الموشاة بالندى، شمس الشتاء المبتلة بقطرات البرد، وهدان يستعد للنوم، وتكون الحكاية قد وضحت فى ذهنه، تخلقت فى كلمات محددة، ولكنه لم يقلها لأحد، حتى ولا لزوجته أو أبنائه الصغار، فى الليالى، كان يسافر على أنغام نوبة الوداع، ويعود إلى الضهرية، محمولاً على الأيادى التى قدمت له العزاء.

اسمه فؤاد عبد السميع من الضهرية بحيرة، ولعلكم لا تعرفون الضهرية. . سأدلكم، على الطريق الزراعى. مصر – اسكندرية

الشهير، بالتحديد عند الكيلو ٩٦، ان كنت ذاهباً من مصر إلى الاسكندرية، فى التوفيقة. . وبعدها تودع الاسفلت تتركه وراء ظهرك، تتجه على طريق زراعى مترب، وأوصيك ألا تنتظر الاوتوبيس، فالاتوبيس فى هذه الناحية لا يحضر إلا كل ست ساعات، عليك بالسير على قدميك، وفى الطريق، بعد ان تقرأ الفاتحة لسيدى أحمد الذكيرى فى كنيسة الضهرية ترتفع من وسط الحقول مئذنة مسجد ونخلة وعمود تليفون، ثم مبنى الوحدة المجمعة، وفى الضهرية، فى منزل وهدان عبد السميع شيخ الخفراء فى حجرة صغيرة، مغلقة، عششت بها العناكب، ورسا على الاشياء فيها تراب الزمن، ستجد ساعة يد، بطاقة شخصية رقم ايتاى البارود، احترق جزء منها، ونقود قليلة، ومنديل أصفر عليه نقاط من الدم المتجمد، خطابات، حوالات بريدية. . شيك بمبلغ صغير، رزمة من الأواق القديمة، تلك هى أشياء فؤاد عبد السميع، حفظها أخوه فى حجرته.

ثم سارت الحياة وسط موجة من الاحلام الغامضة والأمانى المبهمة والمشروعات التى لن تتحقق أبداً، ان كل شئ حتى الأمل، يفقد نضارته، ويأتى مع مرور الأيام والليالى، سأم لذيذ، قريب من اليأس، ويلتصق بجلود الناس.

لحظة القيلولة، وهدان فى حقله، نائم على ظهره، انه يتمنى أن يصعد فوق شجرة التوت، القائمة على رأس حقله، عند مدار

الساقية، ويطل من فوقها على المساحات اللانهائية من الخضرة، ثم يغوص فيها ويغوص إلى ما لا نهاية.

فى هذا المساء، دار وهدان فى البلد اكثر من مرة. سمع حديث الناس عن شهداء أبى زعبل فى اكثر من مكان، فلسعته ذكرى صغيرة، تنام فى نفسه، تذكر ان فؤاد سافر آخر مرة إلى مصر دون ان يراه، دون أن يسلم عليه، أن يقول له وداعاً، وان فؤاد لم يعد بعدها إلى الضهرية أبداً، ولا حتى محمولاً على الأعناق، وفى أثناء مروره على الخفر، تحدث معهم فى أمور كثيرة، وتبسط معهم فى الحديث، وفى هذه الليلة، كان صوت البروجى وهو يعزف نوبة الوداع، يطن فى أذنيه، وكانت صورة الحبيب الغالى، تطل عليه من الغيب واضحة.

الضهرية تنام الآن، والرجال فى حجرات نومهم الصغيرة يحلمون، يصنعون سفناً بلا أشرعة، سيبحرون بها فى الأيام القادمة، وبعد أن يفيض النيل إلى بلاد بعيدة، حيث سيجدون هناك كنوز الملك سليمان، ان وهدان يجلس على مصطبة مستطيلة، يجلس بجانبه أحد الخفراء. . يسأله عن رأيه فيما حدث فى البلد الليلة، وهدان يقول له، بصوت مستسلم، ملوى العنق، وكان هواء الشتاء الرطب يهب عليهما من الناحية البحرية. قال وهدان:

– ان الحكومة لابد وان تفعل شيئاً ما، وان الحكومة كلها

مجتمعة الآن، فى هذه اللحظة فى مصر، تدرس الأمور، وانها لن تسكت على ما حدث بأى حال من الأحوال ثم قال وهدان:

– ان من استشهدوا صباح اليوم، قد ضمنوا الجنة وقد وجدوا من يدفنهم، ويبكى عليهم.

– ويا عالم احنا حا يحصل لنا ايه؟. .

قال وهدان:

– فى صباح يوم الاثنين القادم، يوم عيد الأضحى سيخرج فى الصباح، يذهب إلى قبر الحبيب، يشعل البخور، يقرأ القرآن، يدخل القبر، يعيد فرش الحناء، وتسح الدموع الدافئة على حناء القبر، لن يحضر له أو لأولاده أو لزوجته، ملابس جديدة، سيجلس فى المندرة، مع كل أفراد عائلته، كى يتلقى العزاء فى فؤاد، فهذا أول عيد بعد استشهاده.

– ليرحمه، وليرحمنا الله.

قال وهدان ولكن لنفسه. .

٤
الهموم فى حبة القلب

« وانه تبين ان احدى الطائرات الاسرائيلية القت قنابلها خارج الهدف المحدد بسبب حدوث خلل فنى .. »

« من مقدمة أخبار اذاعة لندن »

ككل يوم، عندما يشيخ النهار، ويدب الهرم والضعف فى أوصاله، وتبهت الاشياء ويذوب شكلها فى جوف المساء القادم، تقوم أم للملوم، تفك رباط الجاموسة، تذهب بها إلى المـوردة، تتركها تشرب كفايتها من المياه الشتوية الباردة، تلم أشياءها، داخل مقطف كبير، بقايا طعامها، لفة صغيرة فيها أوراق هامة، تربط حزمة البرسيم، تضعها على ظهر الجاموسة، تودع الحقل الصغير بنظرة حانية، ثم تسير على الطريق المبلط، الغامق السواد، فى طريقها إلى الضهرية.

وهى فى الطريق، راحت ترتب فى ذهنها ما يجب أن تقوم به من أعمال فى المنزل الصغير الخالى من كل شئ، حتى من صوت تنفس الآدميين فى رحابة الليل الطويل، وفى كل مساء، وأم لملوم فى طريق عودتها من الحقل، يدور عقلها فى أشياء بسيطة، وما أن تدخل حوارى البلد، وتقترب من جامع سيدى صلاح، حتى تقرأ الفاتحة فى سرها، وتستعد للانعطاف فى أول حارة تقابلها، حيث

منزلها الصغير، حسبت، وهى فى الطريق، الأيام والليالى، أدركت أن هذا هو اليوم السادس من الشهر العربى، وبعد قليل سوف يأتى قمر المساء، حيث أحب ابنها، وحيث انتهت حكاية حبه.

– اوضتك جوه زى ما هى يا لملوم. .

يحضر. . يمضى فى الضهرية أياماً تمر بسرعة، تفكر فيما يأكله، فى غسل ملابسه العسكرية، كيها، وفى يوم السفر، تقلع الدموع من جذورها، وينظر إليها لملوم، نظرته الحانية، وتكون على شفتيه بسمة هادئة، كأنها تقول لها كلمات، انها يجب أن تبقى ببئر القلب دمعتين، نقطتين من الدموع الساخنة فمن يدرى ما تخبئه الأيام والليالى؟

يوم الخميس، ليلة الجمعة، وأم لملوم تدرك كما علمها الاباء والأجداد فى الزمان القديم، ان ليلة الجمعة ليلة مبروكة، فيها تضاء الشيوخ بالشموع، تدمع قطرات ساخنة إلى أن يأتى الصباح، وحتى المقابر، تلك البقعة النائية على حدود الضهرية، يقام فيها ذكر الله، ويتلى القرآن وتضاء القبور حتى تثقب أشرطة الضوء الفضية رداء الليل الداكن، يقوم بذلك ملائكة من عند الله سبحانه وتعالى.

وفى ليلة الجمعة من كل اسبوع، تتذكر لملوم، تحادثة فى الخيال، ترجوه أن يحضر، أن يكذب كل ما يقال عنه، مهما سمعت، فإن لملوم هناك، فى مكان ما، من مصر الغالية، يتنفس نسمات الهواء التى تمر على الضهرية فى كل وقت، ويشرب من ماء نيلها الدسم، ويحيا، وفى الأعماق منه حلم وردى صغير، ببنت الحلال، وبأرضه.

ان ما يؤكد لها ذلك ، أن ملوم سبق أن اختفى، مر عليه نصف عام، وكادت تجن، غير انه كان هناك هتاف داخلى، صوت يشبه الهمس، يؤكد لها فى صمت الليل، ان ملوم لم يمت، وانه هناك، وانه سيعود ذات مساء، وبعد ستة أشهر كاملة، عاد ملوم، وكان ذلك بعد الحرب الكبيرة، كان يعلق ذراعه اليمنى بشريط أبيض إلى عنقه، وينطق الألفاظ ببطء ظاهر، ولكنه عاد.

وقالت أم ملوم، وكل أهالى الضهرية، المهم أنه عاد. .

– دا الحمد الله، حتى لو كان كوم عضم. .

مكث ملوم شهراً كاملاً، حكى خلاله وهو جالس فى حجرته الداخلية، لأمه ولكل من زاره من الأهل والأقارب والأعزاء، كيف عاد من سيناء، قال كلمات يقف لها شعر الرأس، وتخفت عند سماعها دقات القلب، ويجف الحلق.

سافر ملوم بعد شهر. .

قال لأمه أنه قد ينقل الى وحدة أخرى، فى مكان لا يعرفه، وانه قد يحضر، يلف بداخله همومه وأحزانه وأشواقه إليها وسؤاله عن الصحة وحال الأرض والذرة والجاموسة، يلف ذلك، يطويه، يضعه بداخل خطاب أزرق ويرسله إليها.

ان أم ملوم تقف الآن بجواره، عند موقف السيارات على الجسر، جسر ترعة ساحل مرقص، وظلال الأشجار الجازورين تتماوج فى ليونة على سطح المياة الهادئ، والقارب الصغير ينقل الناس إلى

الناحية الأخرى. أم ملوم تحدث ابنها، توصيه، تقول كلمات معادة، سبق أن قالتها مرات كثيرة. .

– خلى بالك من نفسك يا ملوم. .

غير أنه لم يعد. .

لم يعد بعد ذلك أبداً. .

لم يأت من عنده خطاب أزرق، لاحس ولا خبر، ومضت أيام الانتظار ثقيلة الوطأة، قاسية وراحت أم ملوم تنتظر، فى الليل وفى النهار وفى كل الاوقات، وكانت تجلس خلف باب منزلها، وتلصق أذنيها بخشب الباب، وقد يحدث أن تسمع صوت خطوات تسير فى الحارة، فتحاول أن تتحسس الصوت القادم، وأن تميزه وتتصور أنها خطوات ثقيلة، مضبوطة، وانها هى خطوات ملوم، وترفع يدها وتقول انها خطواته، وتمضى الاجزاء الصغيرة من الثوانى بالغة البطء، وتمر الاقدام بعد منزلها، إلى داخل الحارة، فتدرك فى نهاية الأمر، انها ليست أقدام ملوم.

«جارى البحث عنه»، مات زوجها من قبل، تذوقت ألم فراقه، ولوعة فقده، «جارى البحث عنه»، ولكن اختفاء ملوم، ابن عمرها، شئ أخر، جارى البحث عنه، وعند التوصل إلى أية معلومات عنه سنوافيكم بها على الفور»، كانت قد أرسلت عن طريق قريب لها، رسائل مبللة بدموع العين، «جارى البحث عنه، وعند، وتفضلوا – سيادتكم – بقبول فائق الاحترام».

– البنت دى عامله ايه يا امه؟. .

وتستريح بينه وبينها. . فى هدأة الليل. . الحكايا. تنساب الكلمات الصغيرة، يتحدث لملوم بصوت خافت كالأنين:

– البنت دى عامله لى عمل.

تنصت له أمه، تسمع حكايته، ويخفق القلب الذى نضب من كثرة الاحزان، ويختم لملوم حكايته، فإن كل شئ لا بد وأن يؤجل حتى ينتهى تجنيده، ويسرح ويعود إلى البلد، يقسم لملوم ان هذه البنت وهى أحلى بنات الضهيرية كلها، عملت له عملاً، حلبت نجوم الليل، ومن حليبها الأبيض الحلو، عملت له عملاً عند الشيخ مبروك، ووضعته فى مياه ألقتها فى طريقه ذات صباح، وانه قد عبر هذه المياه ثلاث مرات، فلكى ينجح العمل، لابد وأن يمر عليه ثلاث مرات.

«تحية طيبة وبعد، لذا يرجى التكرم بالاتجاه إلى مكتب شئون الغائبين، بالعنوان الآتى، ومعك ما يثبت علاقتك به، كى يتم اللازم نحو صرف مستحقاتك المادية، مع التحية». .

– لملوم موجود يا أولاد؟. .

– دا حتى بعت لى جواب. .

كانت تؤكد ذلك، لكل الناس، وكانت تقسم انه أرسل لها السلام، وأوصاها بالاهتمام بصحتها، خاصة وإن الشتاء على الأبواب، وانها سمعت ذلك من راديو الأسطى إبراهيم الترزى، وإن ذلك قد حدث مصادفة أثناء عودتها من الحقل ذات مساء.

الأيام تمضى، لم يعد لملوم بعد، وتختفى صورته، شيئاً فشيئاً، ويذوب كل شئ، الحزن والأسى واليأس والأشواق خلال سوقية الحياة وتفاهتها، وترجأ كل الأشياء المؤجلة إلى الغد، وتشيخ الليالى الحبالى، تشيخ حتى قبل أن يأتيها ألم المخاض.

قال لها لملوم فى آخر اجازة له، إنه فى الشهر القادم، ستنتهى مدة تجنيده، وسيصرف له بعد ذلك مبلغاً كبيراً، عشرة جنيهات وخمسة وأربعون قرشاً. لذلك، لا بد من الاستعداد للفرح والمهر، ترميم البيت، طلائه، شراء نصف فدان أرض، وقال لها، إن الأيام القادمة ستكون أياماً سعيدة، وان الله سبحانه وتعالى قد عوض صبرهم خيراً فى آخر الأمر.

أم لملوم تسمع همساً من بعض الشبان، أنهم يقفون فى الشارع الرئيسى، يقولون أن من يمضى عليه ثلاث سنوات وهو غائب يعتبر شهيداً.

وقفت مكانها، نظرت إلى الشبان، ثم مضت فى طريقها، ولم تعلق على حديثهم بكلمة واحدة، وراحت وهى فى الطريق، تعد الأيام والليالى، منذ أن اختفى لملوم، وعندما أعياها العد، وعجزت أصابع يديها العشرة أن توصلها إلى نتيجة ما، اقنعت نفسها أنه لم يمض على الغائب، الحبيب عام واحد، وأن أمامها عامين طويلين عريضين، قد تحدث فيهما الأعاجيب.

فى الصباح، قامت من نومها، ذهبت إلى منزل حبيبة القلب، قلب لملوم، طرقت الباب دخلت. خطبتها له.

– بس لما يبان موضوعة يا أم الملوم . .

قال والد الفتاه.

هبت فيه بصوت عال، وقالت أنه موجود فى الجبهة، وإنه هو الذى أرسل لها خطاباً بذلك، وعندما طلب منها الخطاب كى يراه، قالت أنه أرسل أحد زملائه كى يخبرها بذلك. وافق الرجل، واصرت على أن تقرأ الفاتحة، وأن تتفق معه على كل الأمور. . المهر، مقدم الصداق، مؤخره، الميعاد. حاول الرجل أن يرجئ كل هذه الأمور إلى حين عودة الغائب، غير أنها أصرت على أن يتم كل شئ.

وفى اليوم التالى، ذهبت أم الملوم مع أم العروسة إلى كفر الزيات واشترت النحاس وأدوات المطبخ والتنجيد. وقالت أن باقى الأشياء سيشتريها هو بنفسه عند حضوره. وقالت أنه أخبرها أنه يرغب فى الذهاب هو وخطيبته إلى طنطا لشراء الأشياء الباقية، وعادت. طلبت أن يطلى المنزل كله، أرسلت فى طلب البوهيجى، أفهمته أن ذلك من أجل فرح الملوم.

– بس لما يرجع بالسلامة. .

افهمته أن ما عليه إلا أن ينفذ وله ما يطلبه. اتفقا فى النهاية على كل شئ. . . وسافر إلى كفر الزيات. اشترى المونة، وطلا المنزل كله، وزين حجرات النوم برسومات عن ليلة الدخلة والعروس والفرح، وكتب على واجهة المنزل آية قرآنية. ثم أخذ منها باقى الحساب.

«ومرسل طيه، مرتب الغائب، عن شهر، والذى سيصرف له فى

أول كل شهر»، كانت تصرف النقود، تضعها فوق ماهية الشهر الماضى. وفى كل شهر وهى تتسلم النقود، كانت تدرك أن الملوم يبتعد عنها، وكانت تجهد نفسها، لحظة عد النقود فى تذكر صورته. فى محاولة فهم احساسها عند سماع صوته، وكانت الأشياء تبدو باهتة، موغلة فى القدم، وكان القلب يذوب، يضمر، يترك فى تجويف الصدر فراغاً، لا تدرى كيف تملؤه.

فى الصباح، كانت تذهب إلى الحقل، تخاطب كل من يقابلها، تقول لكل الناس أن الملوم سيعود، كانت تخاف الا يصدقها الناس. لقد علمتها المرحومة أمها أن الناس اما شامتة، وأما مشاركة. غير أنها فى الليل، عندما كانت تنفرد بنفسها، كانت تناجيه، تكلمه، وكان يعتورها احساس بأنه ذهب ولن يعود. وفى آخر الليل كانت تكابد هما صموتاً، وكان الأسى ينسال فى صدرها كذوب الرصاص. وفى بعض الأحيان كان ينتشر فى نفسها احساس يشبه اليقين بأنه ذهب. ذهب ولن يعود. فكانت تتمنى أن يكون الرأس بحر ماء، وأن تكون العين ينبوع دموع. وتجلس هنا، أو على مدار الساقية فى الحقل البعيد. وتبكى.

تسوى حجرته، تلم الحصيرة، تسندها لحائط الحجرة، ترفع البطانية، تعلقها فوق مسمار كبير فى الحائط، تضع المخدة على الصحارة، تكنس الحجرة. تذهب إلى الحقل، وتقسم أم الملوم أنها ماأهملت فى أداء هذا الواجب فى يوم من الأيام، وان الحجرة فى كل

صباح، كانت تبدو نظيفة مرتبة، كأن صاحبها كان ينام فيها ليلة الأمس. إن أم الملوم تدرك، أنه مهما بعد عنها، مهما حدث له فانه هنا، رائحة عرقه، صوت تنفسه البطئ فى ليالى الشتاء، كلماته عن حبيبة القلب، حبه لها، لقاؤه معها.

يا أمى، يا أم الملوم، الملوم غاب. . غاب تماماً، ومصر الغالية، حضر إليها الغزاة من البلاد الباردة، من الشمال ومن الشرق ومن الغرب. وكان النيل الذى يرتمى بجوار بلدتنا، يرقب الدنيا باحدى مقلتيه ويبكى بالمقلة الأخرى. يبكى مياهاً غير صالحة للرى أو الشرب، مياهاً مالحة، الملوم تاه منذ ألوف السنين. . تاه قبل بناء الأهرام، وقبل حفر قناة السويس، وهو الآن يكمل دورة البحث والسفر والترحال فى مصر الغالية. . السفر بلا نقطة ابتداء، وبلا أمل فى الوصول إلى مكان على الأرض، الملوم غائب. وفى مصر أم الدنيا. قالوا لنا بالحرف الواحد، وبصوت منكسر منطفئ. «جارى البحث عنه».

قالت جارتها، أنها سمعت وهى تملأ المياه لحظة العصارى، الناس يقولون أن اليهود خربوا بلدة اسمها أبو زعبل، وقتلوا مائة شخص من أهلها، وأن زوجها لم يعد حتى الآن، كى تعرف منه حقيقة ما حدث، فهو يعلم أكثر منها، وان الناس فى البلد حزانى بسبب ما حدث، وانه ما دام أصبح بيننا وبين اليهود دم وقتلى فان المسألة لا

يمكن أن تنتهى بخير أبداً، وان الأيام القادمة تحمل فى رحمها ويلات وأوقات عصيبة ستشهدها مصر.

قالت جارتها أنها رأت فى المنام ليلة الأمس، أن نهر النيل قد فاض، وان الفيضان قد زاد عن حده. . حتى أغرق البيوت وطمس معالم الأشياء، وتقسم أنها شاهدت فيضان النيل يقلع الأشجار من جذورها، وان البلد كلها غرقت، وأنها فى الصباح، حكت رؤياها لزوجها فزجرها.

– فال الله ولا فالك. .

وعندما استوضحته سبب زجرها، ومعنى الحلم فى ساعة صفاء قال لها:

– إن هناك أمرين لا يعنى أى منهما خيراً فى الأحلام وأنهما يكونان دليل شر عظيم، وهما النار والفيضان،

ثم لم يزد على ذلك كلمة واحدة.

قالت أم الملوم:

– يا كبد أمهاتهم عليهم. .

وفى ليالى أمشير، لا يطير الكروان، فغناؤه فى رحابة الليل قد يحمل إلى النفوس أملاً ناعماً بأن الأحباب الغائبين قد اقتربوا منا. . وان الحبيب الغائب قد يعود يوماً ما إلى الضهرية. . تبدو الضهرية لعينى أم الملوم؛ فى عتمة الليل وقد أسكرها الحزن.

حضر إليها هذا المساء من أخبرها أن ابنها الملوم هناك، عند

الجسر وأنه يقف بهى الطلعة، حلو التقاطيع، وكانت رائحة روث البهائم تملأ الحارة، وتزحم رائحة الهواء، لم تتحرك، لم تسأله هوه فين؟ . . رفعت إليه عينيها اللتين بلا رموش ولوت بوزها ونظرت إلى الأرض.

– لا . . ابنى مش جاى النهاردة . .

وقالت

– أنت فاكرنى مش حا أعرف هوه جاى امتى؟ . .

قالت الكلمات ببطء، وكانت نقاط الدمع الساخنة تقف بين مقاطع الكلمات، تترك فى النفس احساساً موجعاً بالفقد، وراح الشاب يقسم لها أن لملوم فى الطريق إلى البيت الآن، وانه صافحه وسأله عن رجال البلد، ثم وقف على الجسر مع الشبان، غير أن أم لملوم هبت . . وقفت فى مواجهته . . اقسمت له بكل الايمان وبصوت متآكل الحروف، أن لملوم لن يأتى إلى الضهرية هذا المساء.

وفى صباح اليوم التالى . .

٥

نحن الموقعين على هذا أدناه

« من أرادها بسوء . . قصمه الله . . »

« كعب الاحبار »

وقت الأصيل، أشعة الشمس الطويلة اللينة، ظلال الأشياء التى اكتسبت أشكالاً غير أشكالها الأصلية، الذكريات الرقيقة التى ترافقها، فتحى يجلس خلف نافذته، التى تطل على الناحية البحرية، تستريح نظراته فى خضرة الحقول، أمامه كتاب مفتوح تسرح نظراته على مساحات لا نهائية من الخضرة، وعلى البعد، تلتقى الخضرة بزرقة السماء الداكنة فى نقطة بعيدة.

– «أيها المواطنون . . أدلى متحدث باسم وزارة الداخلية بالبيان التالى» . .

يسمع فتحى، يمد يده، يغلق الراديو، تعود نظراته إلى صفحة الكتاب، غير أنه لا يقرأ شيئاً، سبعون شهيداً، يقوم من مكانه، يدور فى حجرته، ينادى أخته الصغيرة، يطلب منها أشياء لم يكن يحتاجها بالمرة، تتوه نظراته، تصعد نحو الضهرية، يغسل وجهه، يرتدى ملابسه، جلباب رمادى، تحته صديرى شاهى أبيض، يضع

كتابه على منضدة تتوسط حجرة نومه، يتأهب للنزول إلى البلد، يجلس قليلاً، ماداً قدميه على آخرهما، ويفكر، على الرغم من أنه لم يكن هناك موضوع محدد يشغل تفكيره فى هذه الظروف، إلا أنه يحس بشئ مبهم فى داخله، يعود إلى ما سمعه، يتذكر الكلمات، يحاول أن يستشف معنى محدداً له: لقد قامت مجموعة من طائرات العدو صباح اليوم، ورغم أنه يدرك أشياء كثيرة من مجريات الأمور، إلا أن بعده، عزلته، نفيه كما يقول هو عن نفسه أحياناً، بجعله يشعر فى أوقات كثيرة، بأنه عاجز عن أن يفعل أى شئ، وفى كل يوم يسمع، يدرك، يحاول أن يفهم، يتألم لدرجة أن الدموع تسخ فى أعماقه ويسمع صوت تساقطها جيداً، ثم لا شئ أكثر من هذا، وقديماً، منذ ثلاث سنوات، عندما سمع من أحد الشبان الصغار، وكانوا قد تجمعوا لسماع احدى نشرات الأخبار ليلاً، وكان الظلام ممتداً كالمتاهة، صوت الراديو هزيل لا يصله بانتظام، يغطى عليه صوت شاب يقول:

– لقد عبرت قواتنا إلى الضفة الشرقية لقناة السويس.

شعر فتحى بأنه مخصى، بأنه ليس رجلاً، فى الظلام سأل نفسه، ماذا يمكن أن يفعل؟ وبدا له أن أى شئ يقوم به، فى هذا المكان النائى، لا قيمة له، إنه لا يملك إلا أن يتألم، يسمع، تدور الأمور فى ذهنه، يحاول أن يرتبها، ثم فى نهاية الأمر، ينتابه احساس أملس كاذب، بأنه يتألم ولا شئ أكثر من هذا، وفى صباح اليوم التالى،

السأم واليأس ولا جدوى كل شئ واحساس ينام تحت الأضراس كمذاق حبات الملح الذائبة.

بعد قليل سيقوم، سينزل إلى البلد، سيلتقى بالصحاب، «أسعدتم مساء»، يدخنون، يشربون الشاى، يقولون حكايات كل ليلة، تشتعل الكلمات من بعضها البعض، يتوهج الحديث، قصص تتناقلها الضهرية. . تجرها الحياة جراً بطيئاً. .

– هل سمعتم آخر الأنباء؟. .

يقولون كل ما يعرفونه. .

– مين عارف آخر نكته؟. .

وتجف الضحكات على الشفاه قبل أن تولد، يبتسمون، تلتمع فى عيونهم بسمات حزينة، غير أنهم فى النهاية يفترقون على وعد أن يلتقوا مرة أخرى فى نفس المكان، وهو منزل صديق لهم، مساء الغد نفس الموعد، يبددون وحشة الليالى القادمة.

وقت الغروب، تلك اللحظة اللينة فى كل شئ، الظلال والأصوات وأشكال الأشياء، يقف فتحى، يطل على الحقول، الرجال فى حقولهم، يبذرون البذور فى أرض صماء عارية، أرض أصابها البوار، بلا أمل فى مطر قريب، ورجاء فى حدوث معجزة ما طلباً للخصب والنماء، فى كل يوم، ساعة الأصيل، وفتحى يشرب الشاى، قبل أن ينزل إلى البلد، يعاهد نفسه على مناقشة كافة الأمور مع أصدقاء الليل، ويقسم لنفسه أنه سيقول كل شئ، وسيلتصق لسانى بسقف الحلق، إن لم نقل كل ما فى الصدور.

– وقصف المصنع بالرشاشات والنابالم.

يحس فتحى، هذا المساء، ان جو هذا البلد ثقيل، وان ظلام الليلة القادمة سيأتى، يحتوى كل الاشياء بداخله، وسيرين على الضهرية صمت ابدى، وعندما يأتى النهار، تتساقط نقاط الضوء الفضية على البلد كى توقظ الناس والاشجار والبيوت ومئذنة الجامع، سيجد ان كل شئ، قد ضاع فى جوف الليل الماضى، ولا يبقى فى النهاية سوى الذكريات والحنين للأهل والاحباب، ذلك ما يتبقى عادة من رماد الذكريات.

* * *

أمام دكان الترزى الكبير فى الشارع الرئيسى، وعلى ضوء كلوبه الباهت، وقف جمع التلاميذ، بعضهم فى مدرسة انصارى سمك الاعدادية، وبعضهم الآخر فى الصفوف النهائية بمدرستى الوحدة المجمعة ومدرسة عسران عبد الكريم الابتدائيتين، ومنهم بعض التلاميذ الكبار الذين يكملون تعليمهم فى البنادر، ايتاى البارود، ودمنهور، وهؤلاء لا يحضرون إلى الضهرية، الا فى نهاية كل أسبوع، خميس وجمعة فقط، ويبدو عليهم اضطراب وخجل، يسلمون على من يقابلهم من أهالى الضهرية، فهذا هو رحيلهم البكر، فى سفر الترحال عن الضهرية، الحبيبة إلى نفوسهم، ان التلاميذ يقفون وفى أياديهم كتب الجغرافيا، يجلسون على المصطبة، يقتربون من بعضهم حتى أصبحوا فى دائرة ضوئية

صادرة من الدكان، بل أحدهم أصابع يده فى فمه، وابتدأ فى تصفح الكتاب، واستمر، والعيون تلاحقه، والاصابع الصغيرة تشير هنا هناك، والصغار من حوله. كل واحد منهم يحاول أن يتذكر معلوماته عن جغرافية مصر العظيمة، حتى عثروا أخيراً على خريطة، شكل رقم (٣٨) الصفحة رقم (٥٨) المناطق الصناعية فى دلتا نهر النيل، وقرأوا جميعاً، وفى وقت واحد، أبو زعبل، الخانكة، المعادى، حلوان، وعلى مقربة منها، قاهرة المعز لدين الله الفاطمى، ترقب كل شئ، بعيون مستطيلة باهتة المقل خالية من الدموع من كثرة ما شاهدت فى سالف العصر والأوان.

انصرف التلاميذ عن كتاب الجغرافيا، وعن الخريطة التى تراهنوا عليها، وتعبوا حتى عثروا عليها، وبدأ كل منهم فى مناقشات، وراح القادمون من البنادر يقصون حكايات عن ضرب مصنع أبو زعبل، قصص صغيرة لم تذع ولم تنتشر، غير ان كلا منهم قد عرفها بطريق ما، ورفض أن يذكر المصدر الذى عرف منه هذه الأخبار. وشرح لهم أحد الصغار ان هذه الحرب واردة فى القرآن فى سورة ايه، مانيش فاكر، وقال لهم، بعد أن أقسم بالله العظيم، ان نبوءة القرآن، انهم سينتصرون علينا مرة، ومرة ومرة. وبعد ذلك ستتحول الأمور، هكذا يقول القرآن، سننتصر عليهم ولن يقوم لهم بعد ذلك وجود، سيقول الحجر، يامسلم ورائى يهودى فاقتله. وقال آخر، انه سمع فى المدينة رجالاً يتكلمون وكان احدهم يقول: ان شهر

فبراير سنة ١٩٧٠ سيظل يذكر، على ان مصر لم تر مثله من قبل، ولا حتى فى أيام الحرب الكبيرة.

***

علينا جميعاً أن نقهر هذا الصمت، فتحى يجلس بين رفقة السهر، تناولوا الموضوع من كل جوانبه، دارت عليهم أكواب الشاى اكثر من مرة، وأحضر صاحب المنزل راديو صغيراً وضعوه فى منتصفهم، أداروا مؤشره ناحية اليمين واليسار، سمعوا كل محطات العالم، الأنباء، التعليقات، برنامج فى محطة بعيدة عن أخبار العالم العربى، احتد بعضهم فى الحديث، أدان موقف الحكومة، رد عليه آخر بأن الموضوع ليس حماساً شخصياً، وان هناك اعتبارات أخرى لا يعرفونها حيث يجلسون هذه الجلسة المريحة، يشربون الشاى ويثرثرون.

– اعتبارات ايه. . دا كلام فاضى.

قال له الآخر، اننا لسنا بمفردنا فى هذا العالم، وتحدث عن موازين القوى وميزان الرعب والحرب النووية القادمة، حيث لا غالب ولا مغلوب وانما الدمار للجميع، وقف أحدهم، وهو الذى يؤيد الحكومة، وتناول وضع الاتحاد السوفيتى بالحديث. .

– انما ايه رأيك يا أستاذ؟. .

– هيه. . . رأيى. .

– مالك الليلة؟. .

انتبه فتحى إليهم، أحس بكلماتهم كأنها أصوات ليلية مكتومة، تصل إليه من بعيد، زحفت فى صدره مقاطع الكلمات، انتشرت مثل الأنين الموجع، رانت على الجميع فترة صمت، الكلمات ثقيلة بين شفتيه، وفى أبى زعبل، سبعون شهيداً والقاهرة مظلمة الآن تماماً وربما يتردد فى حارات القاهرة الضيقة فى الأحياء الشعبية، نداء بالغ المرارة: طفوا النور، طفوا النور . .

– والله مانا عارف أقول ايه ياجماعة؟. .

أكمل أحدهم فى صوت واضح النبرات، ان الرئيس رجل صعيدى، دماغه ناشفة، وانه لن يترك الكلاب يدنسون البلد، وان مصر كلها لن تسكت على ما حدث صباح اليوم.

قال: مهما تكلمتم عن العالم من حولنا، فنحن لن نسكت، وقال اننا لابد أن نسمع من اذاعة صوت العرب، باكر، بعد قرآن الصباح، ما يؤكد ذلك، وقال أيضاً، ان عنده يقينا داخلياً بأن المسألة لا يمكن أن تقف عند هذا الحد. . وشاخت الكلمات، دب فيها العجز والهرم، وأصبحت تخرج من الأفواه كسولة مسترخية، واستطالت مساحات الصمت، وانشغل بعضهم بحل الكلمات المتقاطعة، والبعض الآخر فى قراءة أخبار أهل القاهرة.

***

عبده البقال منهمك فى عمله اليومى، أمامه دفتر الشكك، يدون فيه ما فاته تدوينه، دفتر متسخ مثقل ببقع الزيت والجاز، يطلب منه أحد الزبائن طلباً ما، يضع القلم الكوبيا خلف أذنه، يعطى الزبون

طلبه، ويعود إلى دفتره، مقرباً عينيه من الدفتر، يقف الرجال حول البنك، يتحدثون فى أمور يومهم، وعبده يشاركهم فى الحديث بكلمة،صوت لا يعنى أى شئ، الرجال يقفون، فى مثل هذا الوقت، وقفة تسترخى فيها أعضاء الجسم، يستريحون من عناء اليوم، ويذكر كل منهم نفسه بأن فى الحياة أشياء حسنة، ينصت الرجال، يستمعون إلى ما يقال، يكون كل منهم لنفسه رأياً محدداً، وعند عودته إلى منزله، سيقوله لزوجته، وهو يخلع ملابسه، ويعلقها على الحمالة فى حجرة نومه، يقوله على انه رأيه الشخصى ولا يمكن أن يناقشه فيه أحد، ثم يقرن حديثه لزوجته، بحكمه على الأمر كله.

– أنا واللّه كان رأيى كدا من زمان، انما مين يسمع؟. .

قال أحد الواقفين:

– ما كنا نصبر على الجار السو. . يا يرحل. . ياتيجى له داهية. .

دهش الجميع، دفنوا كلماتهم التى كانت تبلل شفاهم فى قلوبهم، وحومت فوقهم لحظة صمت وعادوا فنظروا إلى أنفسهم، وتصور كل منهم بطريقته الخاصة، أن هذا الرجل ليس منهم، ولكنهم تذكروا انه فلان، ابن فلان الفلانى، وان زوجته من عائلة معروفة فى البلد، غير ان هذا الكلام لا يمكن أن يقال فى مثل هذه الظروف، وبدأت الكلمات خجولة، وتكاثفت، وكادوا يختلفون، لولا أن شرح أحدهم لصاحب هذه الكلمات، ان هذا المثل القديم، قد يكون

صحيحاً ان كان هذا الجار منا، «يعنى مصرياً» أما ان يكون يهودياً، فاما نحن وأما هم، ولا يوجد حل ثالث للمسألة، وقال لهم ان الرجال فى مصر، وخاصة فى الريف، يولدون ويولد معهم قدر من الصلابة والعناد، وان هذا العناد يظل معهم طيلة العمر، كقدرهم تماماً.

***

فتحى سالم فى طريق عودته إلى منزله، وفى هذا الطريق يكون الحنين وحزن آخر الليل، والعودة من رحلة كل يوم، فتحى يسير متمهلاً، واضعاً يديه فى جيبه، مخترقاً بنظراته الظلام المتراكم أمامه، ذهب إلى البلد، سهر، شرب الشاى، سمع أصدقاء كل ليلة يتحدثون، كلمات مقتضبه غريبة، قام، سلم عليهم، تواعدوا على اللقاء فى مساء الغد، ابتسموا لحظة الفراق، لبعضهم البعض، أخيراً وجد نفسه بمفرده وسط الليل الشتوى البارد، وأدرك، عندما أصبح بمفرده، ان فى أعماقة شيئاً ما، له ثقل الحديد وبرودة الثلج، وكان يتساءل: ما العمل؟ وكان الرد الوحيد انه يكفيه انه منفى هنا، يكابد مرارة النفى كل لحظة من العمر.

« جزء من تفكير السيد فتحى سالم فى هذه الليلة عندما أصبح بمفرده وارجأ تدوينه إلى الغد»

فى روح كل فلاح فى الضهرية وفى ريف مصر كلها، بذرة صغيرة، بالتحديد فى قلبه، وقد تذبل، يعلوها صدأ قديم، غير انها لا تموت أبداً، بل تعيش فى روحه، وتظل مختبئة وسط الظلام، قد تكون هذه البذرة حبه لأهله وأولاده الصغار، بلده، عيدان النباتات

الخضراء النامية فى الحقول. مساحات الظل المتآكلة الأطراف، على الجسر، وقت الظهيرة، مياه النيل الدسمة، هواء بلده الطرى، حبه لبر مصر، وهو يدرك هذا دون شرح أو تفسير، ثم ارتفع عدد الضحايا فى المساء إلى سبعين شهيداً. . جال بخاطره احساس محدد عن العدل، انه يريد الانصاف وهو على ظهر هذه الارض، انهما لا قيمة لهما، ان أتيا فى زمان أومكان ناء عنه، لابد منهما الآن، وان استشهد هو أو غيره، فلابد وأن ينهض من قبره، يعود إلى الحياة، كى يرى الانصاف بنفسه على أرض مصر، وقد يتحول بعد الموت إلى تراب، ربما سماد، ولا يبقى منه سوى أشياء لا تثير فى النفوس سوى الذكريات، أما الانصاف والنصر، فقد يكونا لانسان آخر مصرى غيره، يأتى من رحم الغيب، غير انه يجب أن ينتزع الانصاف ولا يجلس هنا، فى ركن من قرية صغيرة، فى انتظار أن يهبه اياه انسان آخر.

دخل منزله، أشعل مصباحه الصغير فى حجرته وخلع ملابسه، تناول العشاء، أخذ يدور فى حجرته، أرتدى بيجامة زرقاء، أعاد تنظيم الحجرة، جمع كتبه، أوراقه، أقلامه، وضعها فى حقيبة صغيرة، اقترب من النافذة التى تطل على الناحية البحرية، فتحها، شم هواء الحقول المشبع برائحة الزهور الربيعية، كان يشعر برغبة فى الغناء، في أن يقول أى شئ حتى لنفسه.

***

«قرار شبه نهائى، اتخذه السيد فتحى سالم غير أنه أرجأ تنفيذه حتى صباح الغد»

فى الصباح، قبل أن يذهب إلى المدرسة، سيذهب إلى مكتب البريد، يسلم، يسأل عن الحال، ويأخذ من وكيل المكتب نموذج تلغراف مطبوع، يخرج قلمه الحبر الأنيق من جيبه، ويستأذن وكيل المكتب فى الجلوس، وبعد أن يقول له وكيل المكتب، اتفضل ياأستاذ، يجلس، يعتصر ذهنه، يكتب بخط يده اليمنى تلغرافاً إلى مصر الغالية، يقول فيه، بكل بساطة، «يا مصر. . يا أرملتنا العذراء. . فكى ضفائر حزنك السوداء، اجدليها، أرسليها إلى. . . عبر الليل كى آتى إليك سائراً عليها، ثم أرتدى طرحة فى لون الليل، ليل ريفنا الدسم حتى تذهب الغمة، وينجلى الكرب.

فهذا هو قدرك يا أحلى صبايا العصر». .

الحرب في بر مصر

- يا سادة يا كرام، ما يحلى الكلام، إلا بذكر النبى، عليه الصلاة والسلام.

- صلى الله عليه وسلم.

قال الرواى:

، قلنا فى الحماسة:

- الشجاعة هى مضاء العزيمة، والجبن هو التخاذل، وإن من يرتد وهو على الحدود جبان حقاً، وعندما يكون الانسان ماضى العزيمة فى وجه الأسود، فأنه يأخذ فى الهجوم، أما إذا تخاذل، فانه يولى مدبراً.

وقلنا فى الفخر:

- لقد جعلنا تخوم بلادنا، أبعد مما وصل إليه الأجداد، لقد زدنا فى مساحة ما ورثناه، تهاجم من يهاجمنا حسب ما تقتضيه الأحوال. والرجل الذى يركن إلى الدعة بعد الهجوم عليه يقوى قلب العدو.

نحن طموحون لإحراز النصر، وفى البلاد التى غزوناها، أسرنا نساءهم، وشنقنا رعاياهم، وذبحنا ثيرانهم، وحصدنا زرعهم.

وقلنا فى الحكم والأمثال:

- الأسد، أسد وإن كلت مخالبه.

***

الوصلة الأولى:

قال الراوى:

– ما أصعب أن تحكى قصة عن واقعة ما نزال نعيشها، الحدث طازج، والحكاية معلقة فى مآقى العيون، مكتوبة على الجباه، والحرج قائم سواء تكلمنا، أم رشفنا من كوب الصمت المكسور، ما حدث قد حدث، مرت عليه أيام وأسابيع وشهور. وأصبح قبوله جزءاً ثابتاً من طبيعة كل رجل منا. الأمر كله صعب، فى صعوبة الموت نفسه. حاولنا أن نتكلم، سبحنا فى بحار الكلمات. وعامت الألفاظ فى مياه اللغة، أدرنا البصر فى كل الاتجاهات، سجلنا اكتشافاتنا المدهشة، حدقنا بعضنا فى وجوه البعض، بدا لنا الأمر مخيفاً لدرجة الرعب وعدم التصديق. ما حدث كلنا نعرفه، عشناه، تنفسناه مع نسمات الهواء المعفرة بالهوان، رأيناه فى انطفاءة شمس الصباح الخريفية، قرأناه على وجوه طيور السمان التى تحط على شواطئ بحارنا الشمالية، سمعناه فى وشوشات النخيل، ووشيش أوراق الشجر، اكتشفنا أن أيامنا مثقلة بالجراح، وأن دلتا نهر النيل، امرأة تفتح فخذيها لكل عابر سبيل.

قال أحدهم:

– كان خذلاناً من الله.

وقال آخر:

– لقد نفذ القضاء والقدر.

وقفنا، وكان الليل قد شاخت ملامحه، وكان سواده قد استقر فى النفوس. قلنا، ما زالت الأيام تبدى لنا العجائب. قررنا أن هذه الأمور كلها غير صالحة. إن الأيام تمر، وبمرورها تندمل الجراح، وتجف قطرات الدمع على الخدود. العالم بحر، كله بحر، وجسر الخلاص نسفت جذوره، أضحى حطاماً، قطع خشب متناثرة. والموج لا يحمل سوى أخبار حزينة. وطار طائر الشوق. ومن الجو سمعنا مرثياته. ضاعت الأرض، ومات الشباب، وأصبح الهوان مباحاً، والحال على أسوأ ما يكون. استقرت الكلمات تحت قشرة الوعى الرقيقة،. استدارت المعانى فى الأذهان. وفى آخر الليل، قال الراوى:

– كان ذلك، مما جرت به الأقدار، والحكم لله الواحد القهار.

قال الراوى:

– لا أطلب سوى الصدق فيما سأحكيه هذه الليلة. الحكاية، ككل الحكايات، لا بد وأن يكون لها بداية ووسط ونهاية، ولحظة حاسمة تصل فيها الأحداث إلى الذروة، ثم تأتى النهاية. والحكاية لها بطل، يجسد الشوق والحنين والفعل، وأشخاص تدور حول البطل. كما وأن الحكاية، تحدث خلال زمان معين وعلى أرض محددة. غير أن حكايتنا، حدثت بغتة، مرة واحدة، وفى أكثر من مكان. ومن الصعب تحديد زمان محدد حدثت خلاله.

مصرى قمر الدولة الضهراوى، فى الضهرية.

ترك وحدته هارباً، وحضر إلى قريته.

هذه هى كل أحداث حكايتنا الليلة. إنها حدث وليست حكاية، غير أنه حدث له أهميته التى تفوق كل ما حكيناه من قبل، إنها ليست حكاية عشق فى سالف العصر والأوان، وليست درساً عن كيد النسوان فى عصرنا الحاضر. إنها شئ آخر، فيه الغربة والحنين والتوق والهمس والجنون. فيها ما حدث، وما يحدث، وما قد تلده لنا الأيام الحبلى بكل عجيب وغريب.

ذات مساء حضر مصرى إلى الضهرية.

لم يكن فى حضوره ما يوحى بشئ غريب. نزل من السيارة الأجرة على الجسر، سلم، رمى نفسه فى الأحضان التى رحبت به «وحشتونى والله». قبّل أهل بلده. مسح غربته فى عيونهم، وغسل الهم والانتظار والترقب فى نظرات أهل بلدته. فى المنزل قبل يد أبيه وأمه. سلم على أخوته الصغار. شم رائحة التراب فى الحجرة الصغيرة. وعبق أنفه برائحة الخشب المسوس. سأل عن الصحة والحال. قالوا له أسماء من ماتوا، فطلب لهم الرحمة من رب العباد. ومن أقعدهم المرض الأخير فى بيوتهم، فتمنى لهم الشفاء أو الموت. سألوه، ألم يأن أوان تسريحه من العسكرية بعد. الغربة كاوية لاذعة، الغربة تذكر بأن السعادات الصغيرة، يمكن أن تهدم فى أى لحظة خاطفة، والشوق زاد عن حده، والأيام استطالت، ولا من أمل. قال لهم، ان الأوان لم يأن بعد. سألهم عن الأرض والزرع والماشية، اشتكوا سوء الحال. قال فى نفسه، ان الداخل يساوى الخارج. سوء

الحال موزع بالعدل، وهمس، فليكن لنا فى العدل كل الأمل والعزاء. وبعد أن لف الكلام ودار. وبدا الليل يخر عن آخره، وبدأ جو وسط الدار، مثقلاً برائحة اختمار أرض الزريبة ببول الماشية، تنحنح أبوه:

– يا مرحب يا مصرى. والاجازة كام يوم إن شاء اللّه.

– لأ دى مش إجازة.

– أمال إيه؟

ببساطة ودون اللجوء إلى ألفاظ نبيلة كبيرة الحجم وبإحساس طازج، قال لهم، إنه هرب من وحدته. إن الجميع يبدون الآن، كأنهم صور مرسومة على حائط القاعة. عيون تدور فى محاجر بلا رموش. إن الصمت يزحم المسافات، وثمة تساؤلات فى الفراغات الصغيرة، وثمة كلمات جفت على الألسنة والشفاه وبقيت معانى فى النفوس. قال أبوه:

– إنما ليه كدا يا مصرى.

وقف مصرى، بدا طويلاً لحد السقف الأسود. أدار عينيه فى الجالسين، وتقطعت خيوط النظرات بينهم، فأحس كل منهم، أنه ضعيف لحد الموت:

– الأمر للّه، من قبل، ومن بعد.

الحكاية طويلة.

خرج مصرى من الحجرة، وكان والده يطحن الألفاظ تحت أسنانه، قبل النطق بها.

– بكره الصباح رباح.

***

مصرى قمر الدولة : لم يكن هناك من حل سوى العودة

العمدة : لا بد من عودته ، طوعاً أو كراهية إلى وحدته، ليكون عبرة لمن يعتبر.

قمر الدولة الضهراوى : كثير ما أعرفه عن ابنى.

رجل من أهل البلد : قليل ما نعرفه نحن أهل البلد، عن حكاية مصرى.

امام المسجد : هذا زمن العجائب السبع.

نشرة : مطلوب البحث عن :

الاسم : مصرى قمر الدولة الضهراوى

العنوان : الضهرية، مركز ايتاى البارود – بحيرة.

تاريخ الهروب:

الصفات الجسمية : اللون : أسمر.

الطول : ١٢٠ سنتيمتر

لون العينين : عسلية.

لون الشعر : بنى غامق.

حكاية :

سمعت أنه حدث فى قرية نكلا العنب، مركز ايتاى البارود، منذ عشرين عاماً أو يزيد، أن سافر شاب صغير إلى وحدته، كانت الأيام أيام حرب. ودعوه ذات مساء، لوحت الأيادى فى الفضاء المعتم. وامتلأت الصدور بعواطف الحنين واللوعة والحزن. غير أنه ذهب ولم يعد. فى اليوم المحدد لإجازته، لم يعد. فى اليوم الثانى، تساءل أهله عن مصيره. فى اليوم الثالث. ذهب شقيقه الأصغر، إلى وكيل مكتب البريد. سأله عن خطاب باسم والده. سمع وكيل المكتب، مقالة الطفل الحزين، راجع الخطابات أمامه. وقال له: لا يا ابنى ما فيش. وفى اليوم الرابع. ذهب طفل صغير، بين يديه خطاب مكتوب على مظروفه الخارجى، بقلم كوبيا وبخط ردئ. بريد حربى، الوحدة رقم، جماعه بريد رقم. يصل ويسلم ليد ابننا العزيز، حضرة العريف.

غير أنه لم يعد، أبداً لم يعد. لم تنفرج لحظة الانتظار القاسية. عن ملامح وجهه المجهدة. وعرف أهله بعد ذلك أنه استشهد فى الحرب. مات كتلة واحدة. موتاً بطيئاً. لم يكن يشعر بخوف ولا بترقب. بل بحب استطلاع لما سيلقاه. ثم واجه الشحوب النهائى. كتلة من العذاب والغربة والآمال واللحم والدم. مات وفى ذهنه صورة باهته، تعشش فى خياله، عن بلاد لم يذهب إليها، وسفرات لم يقم بها، وأشياء لم يفعلها. وأغمض عينيه، على صورة. لحم بشرى ودماء

حمراء. ورمال صحراء لا نهائية تتدلى فوقها سماء زرقاء صافية. كانت لهذا الشاب زوجة وأطفال. وعرفت أن الزوجة، رفضت أن تصدق أن رجلها قد مات. وكان يحدث فى كل ليلة، حين يمر قطار آخر الليل، ان كان القطار يتوقف. ان صوت اصطدام عرباته ببعضها البعض. يملأ رحابه الليل. وفى كل ليلة، كان الشاب، الحاضر الغائب، ينزل، يهيم على وجهه، يدور حول البلد بكل ما فيها. وفى نقطة معينة، مكان لا تخطئه العين ولا القلب. كان ينزل. انه منزل زوجته وأولاده. يجلس بينهم، يتحدث معهم. يحمل لهم بين يديه النور انيتين كل ما يطلبونه. الزاد والحلم والأمل وطريق الخلاص.

وعند حلول الفجر، كان يرحل، دائماً يرحل.غير أنه منذ فترة، انقطعت عادته. ولم يحضر لزيارة الزوجة والأبناء. قيل أنه غير راض عما يحدث. وقيل انه غاضب، وقيل انه مشغول فى حرب أخرى. وقيل انه يبكى، الزاد قليل، والحبيب بعيد، والطريق طويل، بطول العمر، فما العمل يا حبيبى. وقيل، وقيل، ثم، حكايتنا حزينة الختام. فمعذرة.

الوصلة الثانية:

قال الراوى:

حكاية مصرى لم تنته بعد. مصرى فى الضهرية، يذهب، يروح، يجئ، ينام، يصحو، تتسرب أيامه ببطء، ومصرى فى صمته،

ينسى أحياناً. ان موضوعه. كان ولا يزال أهم الموضوعات فى البلد كلها. ان مصرى يبدو للناس، كما لو كان ينتظر حدوث حدث ما. الأيام تمر. ومصرى لم يعد إلى وحدته. تلك هى القصة كلها. أولها هو آخرها. واللحظة الحاسمة التى تصل فيها الاحداث إلى الذروة لم تحدث بعد. غير اننا نستطيع أن نختتم حكاية مصرى الآن.

سيدور مصرى ويلف فى البلد كلها. وذات مساء. ستحضر سيارة حكومية. فيها شرطى ومخبر ومرشد من أهل الناحية. بيدهم طلب بالقبض عليه. ويهرب مصرى. وتلك هى اللحظة التى ينتظرها الجميع. وفى الحقول البعيدة، والبيوت المهجورة والسواقى القديمة التى علاها الصدأ. سيقضى مصرى فترة من الوقت. وقد تستمر المطاردة أياماً كثيرة. غير أن النهاية معروفة. لا أحد يستطيع الهرب من الحكومة. سيتم القبض على مصرى، ويوضع فى السجن. هرب من الميدان فى زمن الحرب. لذا وجب معاقبته بالبند كذا، والبند كذا. سيحاكم مصرى.

الحكاية مرة، ثقيلة على اللسان والأذن والقلب.

ان جلساء الراوى يرفعون رؤوسهم، فتبدو كسنابل عجفاء. فى العيون تساؤل، وعلى الشفاه كلمات يزحم بعضها البعض. والحيرة تملأ الهواء. أين الخطأ وأين الصواب؟ الأمر صعب عزيز على الفهم. ان مصرى يقول عندما يثار الموضوع، ان ما يعرفه الناس عن الأمر شحيح، ومن يده فى النار، ليس كمن يده فى الماء.

سكت الراوى. جالت عيناه فى الرجال حوله. تمثل الرجال فى صمتهم القصير معانى الحرب والدمار والموت اثقلت الجلسة على الجفون، فانسكبت نظرات العيون على الصدور. الرجال يتكلمون، والراوى ينظر إليهم وهو صامت. إنه يتحسر على ليال مضت، كان الحديث فيها يخرس الرجال. أبو زيد الهلالى، والزناتى خليفة، والشاطر حسن والصحارى السبع، ليالى الأبطال المسحورين والانتظار والترقب، انه يتذكر الآن، لمعان عيون الرجال، غير انه لا يجد ما يقوله. كل ما عنده قاله لهم. الليل يمضى،والرجال يتكلون، فتندفع الكلمات مسرعة، وتتزاحم على الشفاه. والأذن لا تستطيع ان تلتقط حرفاً واحداً مما يقوله الرجال.

قمر الدولة الضهراوى :

استيقظ قمر الدولة، من نومه مبكراً كعادته، وقف فى منتصف غرفة نومه. خلع الجلباب القديم، الذى كان ينام به، ارتدى ملابس كل يوم، القميص الداخلى، السروال، الصديرى، الجلباب. علامات الصباح الأولى. صاح ديك فى منزل مجاور، ناشراً الفزع والاضطراب بين باقى ديكة البلد، صوت محبب تألفه الأذن، يمر فى الحوارى ساعة الفجر «الصلاة خير من النوم»، ان النسائم الباردة الرطبة، التى تهب من الناحية البحرية، تذكر قمر الدولة. بأن الشتاء أصبح قريباً منه. وما أن يتذكر أن الشتاء على الأبواب، حتى

يستشعر لذة الدفء فى القاعات المغلقة، وحلاوة منظر وهج النار فى بطن الفرن. فيقرر لنفسه، بطريقة بالغة البساطة، أن الحياة ما زالت بها بعض المسرات التى لم يعشها بعد. انه يذهب إلى الجامع، يقضى حاجته، يتوضأ، يصلى الفجر والصبح، انه يقف على عتبة الجامع، البيوت والحوارى تبدو الآن واضحة. انه الصباح اذن. قمر الدولة يعود إلى منزله. فى المنزل يفطر، لقمات مكسورة فى جفاف أيامه. يشرب شايه، يرص كرسى معسل على الجوزة.

قمر الدولة فى طريق ذهابه إلى الحقل. وعندما ترتمى نظراته على اتساع الحقول. فإن نفسه تجيش بمقطع من أغنية قديمة. انه يغنيها لنفسه. وقد ينسى، فيرتفع صوته عالياً. وتتحول الكلمات الجافة، إلى نغمة اشتياق تسعد نفسه. ان قمر الدولة يبدو ساهماً. الرجل يفكر. وعندما نحاول الاقتراب من تفكيره، نكون قد دخلنا ركناً مظلماً. ولو سألناه، فى اى الأمور يفكر، لرفض الإجابة، واستنكر السؤال. قمر الدولة، فى هذا الصباح الرطب من شهر اكتوبر سنة ١٩٧١. أثناء ذهابه إلى حقله، كانت هناك جملة من الأمور متداخلة فى ذهنه. كان موضوع مصرى، هو أهم هذه الموضوعات. لقد فكر قمر الدولة فى هذا الموضوع كثيراً. وما يدهشه، كلما فكر فى ابنه، هو عقله. ان سراً ما، لا يفهمه قد حدث بالنسبة لمصرى. على هذا النحو فكر قمر الدولة، غير أنه فى نقطة معينة، كان يتوقف. عندما يطرح على نفسه السؤال التالى: هل

أخطأ مصرى؟ ان قمر الدولة تبدو على ملامح وجهه الخارجية، علامات مميزة.

تقلصات، سهوم فى نظره، حركة مفاجئه من أصابع يده. لقد سمع منذ أكثر من يومين، من أحد الشبان، أثناء مروره من الشارع الرئيسى. أن ما فعله مصرى كان شيئاً مخزياً. انه يتذكر الآن الكلمة. غير انه يعترف بينه وبين نفسه، انه لم يفهم معناها. غير ان الصمت الذى أعقب الكلمة. افهمه بالفطرة، أن الكلمة نوع من الشتيمة. وقمر الدولة عندما يصل إلى هذه النقطة، يفضل أن ينصرف إلى موضوع آخر. فى هذا الصباح، قرر قمر الدولة، أن يذهب إلى الحقل. يربط البهائم بجوار الساقيه. يحضر لها الأكل. وبعد هذا سيخطف رجله، يذهب إلى الوحدة المجمعة. وهناك يختلى بحضرة الناظر، يسأله المشورة فى الأمر. ان قمر الدولة يبدو للناظر هكذا. فى المقدمة، تسير جاموسته. فى المنتصف يسير قمر الدولة على قدميه. خلفه بقرة. وخلف البقرة حمارة كبيرة. يركب فوقها أصغر أبنائه. وبين أقدام الجميع ماعز صغيرة. لقد أحس قمر الدولة بالارتياح عندما قرر ان يذهب إلى الناظر. انه يهمس لنفسه، يستنشق هواء الصباح الطرى بملء رئتيه. ثم يفكر فى أمور أخرى. عند مروره على العمارات التى يسكنها أغنى أهل البلد. يتمنى أن تتساوى الرؤوس، وتتقارب المسافات. إنه يهمس لنفسه، بأن ما يدور فى ذهنه، مجرد تخاريف صباح. حاول أن يغير موضوع تفكيره، انه ينظر حواليه.

لا حول ولا قوة إلا بالله.

حاول أن يشغل نفسه. غير أن الأرض على يمينه، والأرض على يساره، كانت تناديه. الخضرة زاهية، والمحصول وافر، وسمرة الأرض الرصاصية التى تبدو لعينيه من بين عيدان النباتات، تدغدغ حواسه، ان ما يشغله انه لا يملك قطعة أرض واحدة. سوى منزله فى البلد، وقبره فى الجبانة. أما الأرض التى يزرعها فهى بالإيجار، والبهائم التى تؤنس وحشته فى سيره هذا، فهى شرك، له نصفها فقط. حاول أن يقول أن الحال على أسوأ ما يكون، غير أنه تذكر أن مولانا يطلب منهم فى المسجد، كل صلاة، ان يشكروا الله على نعمائه، فحمد الله فى سره.

الطريق ما زال طويلاً إلى حقله، وفراغ الخريف العذب، ونسماته الباردة، وانفساح الحقول يهيب بقمر الدولة أن يغنى، وعندما اقترب من حقله، فكر بمسرات صغيرة، تقلل من جهامة الحياة وكآبتها فى نظره. فكر فى أيام الأعياد والمواسم، وفى يوم السوق، وفى ليالى الشوق، وفى نظرات الرجال المبللة بالإحترام، التى يقابل بها الناس ابنه مصرى فى البلد.

توقف على رأس الحقل. انزل أكبر ابنائه من فوق الحمارة، نظر فى كل الاتجاهات. كان الصمت يخيم فوق الحقول. قال لنفسه، ان العليل قد طال به زمن المرض. وان دواءه موجود، غير أن الحكيم لم يصرفه له حتى الآن. فمتى يكون ذلك؟

أقول لكم، لا يجب أن نلومه، بل من الواجب علينا، أن نقرر بكل بساطة الحياة هنا، ان الذنب ليس ذنبه على أى حال.

الكبار والصغار:

فى البدء، ينبغى لنا جميعا أن نتعلم، ان نعرف، ان نحاول وضع العوالم الهلامية فى أذهاننا، والعواطف الجامحة فى صدورنا، فى كلمات محددة. قريتنا كذبابة فى شباك عنكبوت. أسيرة برمتها لشكل ثابت للحياة والناس. الناس فوق الأرض، ورب العباد فى السماء. وما كان كان، ومصائر الناس يقررها الحكام. وقال الله تعالى فى كتابه الكريم، وهو أصدق القائلين، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول. وأولى الأمر منكم.

أدركنا بالفطرة، ان ثمة شيئاً ما يحدث. فإزداد اهتمامنا بسماع نشرات الأخبار، وأصبحت الأصابع تمتد إلى مؤشرات الراديو، كى نسمع المحطات الأجنبية. وسألنا القادمين من البنادر بلهفة عن الأخبار، وسمعنا الاف الأخبار، ورأينا الجرائد فى يد الأعيان من ورقتين، فقالوا أزمة ورق، وقالوا أزمة أخبار، فضحكنا من أعماق القلوب المثقلة بالمرارة. وحضر ذات مساء مندوب من المحافظة، أخذ سيارات الأغنياء، وقيل أممت، وقبل صودرت، وقيل تم الإستيلاء عليها مقابل تعويض مالى، فقلنا فلتكن البداية، وانتظرنا يوم يأتى إلى بر مصر، يتساوى فيه الغنى والفقير.

- موجز الأنباء.

عندما قالوا طفوا النور، قلنا لا توجد لمبة نور فى البلد كلها، وعندما طلبوا منا دهان الشبابيك باللون الأزرق فتشنا بالعيون عن الجدران، فلم نجد سوى طيقان صغيرة. البيوت فى بلدتنا بنيت طلباً للستر، من أجل منع العيون من فضح ما بداخل البيوت.

ذهب إلى الحرب فلان وفلان وفلان وفلان. سمعنا البيانات. رسائل الجنود للأهل والأحباب فى بريد الأذاعة. وسمعت الآذان كلمات جديدة. اعلان حالة الطوارئ، التعبئة العامة، القوات المسلحة المصرية تتراجع إلى خط الدفاع الثانى فى محاولة للتجميع والتماسك. اسرائيل العدو المشترك، الدفاع المقدس. الأرض والعرض. لقد كسب العدو الجولة الأولى من معركة طويلة. لقد خسرنا المعركة ولكننا لم نهزم. ذلك أن العدو لم يتمكن من فرض إرادته علينا.

- كان هذا هو الموجز.

وإليكم الأنباء بالتفصيل من القاهرة.

نحن أهالى الضهرين، بحيرة. نقول.

ثم كان الصمت والانتظار، وخلال الانتظار. أصبحت الدقيقة ساعة، والساعة يوماً، واليوم اسبوعاً، والاسبوع شهراً والشهر عاماً والعام أربعة أعوام كاملة. نحن رجال صموتون، صبورون، صبر أيوبى مر المذاق. غير ان كرامتنا معلقة فوق الجباه. بدلاً من الكوفيات واللفاح، الذى نلف به الوجوه فى أيام الشتاء البارد.

– أيها المواطنون.

إليكم هذا النبأ. حدث ان.

ثم كان موضوع مصرى.

ولا ننكر اننا ناقشنا الأمر على المصاطب، وفى صحن الجامع، وفى الباحة الصغيرة، وفى العشه مع الراوى. وفى الحقول، وعلى مدارات السواقى. ناقشه كل واحد مع نفسه على انفراد، غير أننا لم نتفق فى نهاية الأمر على شئ. قال أحدنا ان مصرى عمل لعبة مع الحكم الكبار فى مصر، وبرطل وأخذ شهادة المعاملة، وحضر إلى البلد، ولن يعود إلى الخدمة بعد ذلك. وكل شئ بالقرش. وقال: ان حنك الحكومة مفتوح، وطالما ان يدك بداخله فكل شئ على ما يرام. وقال آخر: أن قمر الدولة قد طلق زوجته، أم مصرى، وبالتالى فمن حق مصرى أن يعفى من الخدمة العسكرية، على اعتبار انه العائل الوحيد لأمه المطلقة. وقالوا ان الطلاق قد تم سراً. وان قمر الدولة دفع مبلغاً كبيراً من المال للمأذون نظير ان يتم المشروع. أقسم البعض منا، انه شاهد بنفسه، كشف العيلة الذى كتب فيه هذا الكلام. وقال ثالث: ان مصرى فى اجازة طويلة، وانه يدفع مبلغاً من المال، للشاويش فى وحدته، وهو يكتب حضوره يومياً.

– يا عم دا كله تخريف.

اللى عمله مصرى، دا خيانة، مصرى هارب.

قيل لنا، فى هذا المساء، اننا نعيش فى دولة. وان هذه الدولة لابد

ان تحترم. وان الدولة ان فقدت هيبتها، فقد فقدت فى نفس الوقت مبرر وجودها. كانت المتحدث. هو أحد مدرسى المدرسة. قال لنا: انه سيتم القبض على مصرى، اليوم أو غداً. أو بعد غد. الأمور ليست سائبة. وعند سماعنا لهذه الكلمات. خفنا كلنا من مصرى. الموضوع كله يحيط به الغموض. لقد ارتبط موضوع مصرى بالدولة حسب تعبير المدرس. والحكومة حسب كلامنا نحن. والحكومة فى نظرنا نحن الفلاحين البسطاء، هى المكاتب الكبيرة والعمارات العالية والأبنية الضخمة التى يقف أمامها العساكر فى البنادر البعيدة. القطارات السريعة، وأسلاك التلفونات التى تحفظ بداخلها أخطر الأسرار.

فى مساء الأمس. قال مولانا، وهو يأمرنا بتسوية الصفوف. ان ما حدث وما يحدث وما سيحدث لمصر. كان مقدراً منذ آلاف السنين فى اللوح المسطور. اكمل. ربنا لا نسألك رد القضاء بل اللطف فيه. وقال للرجال، لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع. نظر كل رجل إلى الواقف بجواره، حدق فى وجهه. همس كل منا لنفسه، بأن ماحدث كان غضباً من الله على بر مصر. وان قضاء أخف من قضاء آخر، ولا بد من قبول ما حدث.

– لم يبق يا أبنائى، سوى سابع عجائب هذا الزمان

قال مولانا هذا واستدار. انه يتجه الآن إلى القبلة. على الجدار القبلى. تصرخ الرسومات والنقوش والكلمات. تهيب بنا أن

نستسلم، تعدنا بالجنة، وتصف الصراط المستقيم والجنات والأنهار والماء والخضرة والوجه الحسن.

– نويت نصلى صلاة المغرب جماعة.

– اللّه أكبر.

– اللّه أكبر.

بعد الصلاة، تحدث مولانا كثيراً عن القلوب الخالية من الرحمة. والخلاعة فى البنادر، والكفر والخمر والنساء والميسر. إن صوت مولانا يعلو فى صحن الجامع، فيسمع له الرجال رنيناً محببا.

– إن القضية يا أبنائى، ليست النصر أو الهزيمة، بقدر ماهى محاولة للبحث عن شكل أكثر نبلاً وطهراً للحياة فى بر مصر.

وتمر فترة صمت مثقلة بعلامات الاستفهام:

– وعن أبى هريرة، أن رسول اللّه، صلى اللّه عليه وسلم.

– عليه الصلاة والسلام.

– انه قال :

إن شعوراً بعدم الفهم يسيطر علينا. ما حدث هناك لا يمكن تصديقه. اننا عندما نسمع كلمة العدو. نحاول أن نفتش فى نفوسنا عن معنى هذه الكلمة. نحن كثيراً ما نتعارك. وقد يتحول العراك إلى عصا ترفع، وفئوس يلمع حديدها فى الهواء. ودماء تسيل، يكتسب لونها القانى معناه على تراب الأرض. غير أننا فى المساء نجلس معاً. نحقق، يقبل الغلطان من وقع فى حقه الغلط، وننهى الموضوع.

وتأتى رياح الليل الشمالية، بعد صلاة العشاء، كى تغسل النفوس.

– قوات العدو تقوم صباح اليوم.

العدو. العداوة. الحرب. القتال. الاشتباكات، تبادل اطلاق النار. نحن هنا نسمع هذه الكلمات. وعندما نسمعها نديرها فى الرؤوس. نحاول أن نجعلها جزءاً من مكونات عقولنا، غير أنها تظل طافية على السطح. معزولة غريبة منسية. ورغم عدم الفهم، فإن الإحساس بعدم الاطمئنان للغد. والغد معنى ممطوط، يصل إلى سنة كاملة. موجود لدى كل رجل. إن الرجل منا يتوقف فى منتصف ضحكته. يمسح فمه بظهر يده. يقول لنفسه. اللهم اجعله خيراً. ثم يؤكد لزوجته وأولاده الذين توقفوا عن الضحك، ان الإيام القادمة، ستحمل لنا كارثة محققة الحدوث. مصيبة تهز البلد. هزة لم تحدث من قبل.

منذ أكثر من عام. قال مولانا قبل الصلاة. إن هذا الزمن زمن العجائب. ورغم الركوع والسجود، وتلاوة آيات القرآن، فإننا جميعاً قد شغلتنا هذه الكلمات. لدرجة أن بعضنا أخطأ الصلاة. وبعد أن ختمنا الصلاة. ودعونا اللّه. سألنا مولانا عن هذه العجائب. اقترب منا. قال ان للحيطان آذاناً. وانه لا يطلب لنا سوى السلامة. قال مولانا : ان هذه العجائب هى العلامات. التى ستقرب اليوم المشهود. طلب من كل منا، ان يحاول أن يفتش عنها أينما اتجهت عيناه. وسيجدها فى كل مكان. سألناه : كم علامة ظهرت حتى الآن. قال ستة.

- والعلامة الباقية.

- استغفر الله ربى.

راح كل منا يصور الأمر لنفسه، غير ان شيئاً شعوراً لا لون له. سرى فى النفوس. علامة واحدة وينتهى الأمر كله. ان الانتظار فى حد ذاته أمر عذب. وفى هذا الكفاية. قال مولانا. فلنترحم على من ماتوا، ولنحزن على من ذهبوا ولم تكتب لهم العودة. ولنطلب السلامة لمن ظلوا هناك. ولنرفع الأكف والعيون والقلوب نحو السماء طالبين من العلى القدير ان يمر يومنا بسلام.

مصرى:

سيدى قائد الوحدة رقم.

لى الشرف.

وكلى ثقة بما تتحلون به سيادتكم من انصاف وعدالة.

سيدى.

كان سلوكى دائماً. .

إنى مسؤول عن رعاية أسرة مكونة من.

وسبق أن أبديت بطولات خارقة فى معركة.

هل تذكر سيدى.

قائد وحدتى.

عائد إليكم.

أقول لسيادتكم.

اكتوبر سنة ١٩٧١.

إن مناطق من أرض مصر، ما زالت تؤكد كل صباح، أن أقدام الغرباء تدب عليها فى الذهاب والعودة. واننى أدرك الآن. ان ارض بلادى أصبحت مباحة لأصوات الأقطار البعيدة، حيث تسمع فى كل وقت. كلمات غير مفهومة. بلهجات غريبة. ونرى وجوهاً لم نرها من قبل.

فى الصباح، أصحو من نومى، أغسل وجهى، أترك رأسى تحت المياه. أدرك أثناء تناول الافطار، أنه ليس ثمة شئ ما يمكن عمله خلال اليوم كله. فيدب فى القلب والنفس فتور غريب. انظر أمامى. على البعد تتدلى سماء خريفية شاحبة. وتحت السماء خيام وسيارات ونقط مراقبة بعيدة.

قلت لكم مراراً. ان الانتظار قد طال. وان العيون قد ذابت من كثرة التحديق. وأن الرموش والوجوه قد ملت الأمر كله. وإن الدقائق والساعات والأيام والليالى قد تآكلت من طول المسافة وبعد الوقت.

قلت لكم. إن الصدأ قد ران على القلوب والشفاه. وان القطارات الليلية. تلك التى تمر فى ظمأ الليل وصمته، تذكرنا بالأهل

والأحباب. اننا عند سماعنا صوتها، نستدير، نعطى ظهرنا للناحية الأخرى. ونسمح العيون والقلوب فى مناظر بلدتنا الحبيبة.

قلت لكم ذلك من قبل مراراً.

غير أن ضابطنا قال لى ذات مساء. وكان الحديث أقرب إلى النجوى. أنتم لستم رجالا. همس لنفسه. إن هذا الزمن ليس زمن رجال. ذهب الرجال ودالت دولتهم. سألنى. هل ودفنته فى الرمال من قبل أياماً؟ قلت لا. سألنى. هل عجنت الخبز ودفنته فى رمال الجبل حتى ينضج بفعل الشمس ثم أكلته؟ قلت لا. سألنى هل نمت فى العراء خلال الليالى الشتوية شهراً بأكمله دون غطاء؟ قلت لأ. هل شربت البول؟. لأ. هل أكلت الثعبان من الجوع؟ لأ . هل تعرف كيف تداوى قرصة العقرب بدون طبيب؟. لأ. هل تستطيع أن تقضى شهراً بأكملة دون لحظة نوم واحدة؟. هل تستطيع أن تعرف الجهات الأربع فى صحراء مترامية الأطراف دون دليل أو بوصلة؟. ربت على كتفى، ولى زمن الرجال إذن. سألت نفسى، هل نحن أنصاف رجال؟. رد على وكأنه كان يسمع تساؤلى. ليتكم ساويتم هذا. ترك حديثه فى النفس إحساساً مائعاً كسحب الصيف الكاذبة. التى لا تحمل سوى الوهم. كان السؤال ملحاً : كيف؟ ولماذا؟. وكانت الإجابة على السؤال فى ضراوة الموت نفسه. وتوقفت طويلاً فى صمت الليل أمام كلمة نحن. رحت أديرها فى الذهن أكثر من مرة. من نحن؟ وتمثل لذهنى صورة الكرة والشوارع المبطنة بالفتيات،

واللحم الأبيض والتأوهات والأنصات لسيدة الغناء العربى. والأكف النائمة فى الأكف والعيون المغسولة بالدموع. إننا لا نتحايل ولا نفعل كل صباح بطولات خارقة. لقد أدركنا منذ البداية. إن ما فى نفوسنا عظيم. وقلنا ان مصر لن تعرف العقم أبداً. غير أننا أدركنا الآن، أن أقصى ما يمكننا عمله، وبعيداً عن العبارات النبيلة. هو أن نحتفظ لأنفسنا بقدر ضئيل من النقاء الداخلى. بعيداً عن الطوفان. وان نطلب من الذين سيأتون بعد الطوفان الذى سنغرق نحن فيه. ان لا يلوموننا، بل يحاولون أن يجدوا لنا العذر.

إننى أتذكر الآن، مناقشاتنا، كلماتنا، أيامنا وليالينا التى دفناها فى صفحات الكتب، الشعيرات السوداء التى تساقطت من فوق الرؤوس قبل الأوان. أيامها. كنا قد قررنا تغيير العالم. قلنا تغييره من أساسه وإلا فلا. وقررنا أن من يناقشنا هذه الرغبة. خائن وعميل ولا يستحق شرف الحياة فى القرن العشرين.

لا أدرى كيف أكمل الحكاية. غير أنى أدير وجهى، وأقول بصوت لا أريد أن يسمعه أحد، أقول أن ما حدث بعد ذلك، اننا كسرنا.

تلك هى الحكاية.

وفى كل يوم، ومهما أفعل طوال يومى، أجرى، أذهب. أتحدث، أقوم بتمرينات رياضية، أغسل ملابسى. أعد طعامى، أقرأ، أكتب الأشواق والحنين على أوراق معطرة. أبعث بها للأهل والأحباب. ورغم كل هذا. فثمة لحظة بعينها فى آخر يومى، إنها لحظة الغسق

الرمادية. أجدنى وحيداً، وحيداً إلى أبعد حدود الوحدة. فى هذه اللحظة. أرشف الصمت والظما. وأبكى يوماً ميتاً سقط من حساب العمر. وفى لحظة الوحدة. أفتش عن بداية يومى. فأجد أنه تفصلنى عنه آلاف السنين.

سنوات قمبيز وهولاكو وبونابرت وليالى قطر الندى وخمارويه وتأملات الحاكم بأمر الله. وسجون المماليك وخيانة خاير بك وتخلى الخديوى توفيق عن مصر. وبذخ الخديوى أسماعيل. فادرك هول ما أعيشه.

وفى آخر اليوم، لا يكون هناك من أمل، سوى فى حديث النفس، وخلال حديث النفس، أقترب من الجنون. أقرب بوم العودة. أشق شارع رمسيس فى مواكب الإنتصار وأمامى أسرى الأعداء. أخطب فى الجماهير راسماً شكل الحياة فيما بعد النصر، أرسل تهديداً رسمياً إلى ريتشارد نيكسون فى مقره بالبيت الأبيض. أعيد تنظيم العمر والعالم من جديد وأعيش فى دنيا لا وجود لها سوى فى خيالى.

أقول :

كانت أيامى صراع وتراب وأنين.

الوصلة الأخيرة :

قال الراوى :

علمتنى الأيام والليالى. وحوادث الزمان، هذه الحكمة الصغيرة. يجب أن نجعل حبورنا عالى الصوت. وأن يغطى ضجيج الفرح والسعادة على أى صوت آخر، حتى لا يعود الهم القديم فيستولى علينا من جديد.

الضهرية. لها شارع رئيسى يقسم البلد نصفين. تتفرع منه الحارات على الجانبين كالخطوط على ورقة التوت. فى منتصف البلد مسجد وباحة. وحول البلد قناة صغيرة، تدور على شكل نصف دائرى. تجرى فيها المياه. وتنعكس على سطحها البيوت والحارات والأشجار. وفى الباحة وعلى المصاطب يتكلم الرجال كثيراً. وفى ملل الحياة وانعزالها. كثير من المؤثرات ومحاولات الإمتاع والكذب.

لقد لف الحديث بنا ودار. وحكايتنا اقتربت من نهايتها.

لم يعد مصرى إلى وحدته. وشى به أحد أبناء الضهرية. «والمذكور أعلاه يقيم فى البلد بصفة مستمرة، وقد أكمل أكثر من شهر حتى تاريخه. والأجر والثواب عند الله». حضر من ألقى القبض عليه.

– أنت مصرى قمر الدولة الضهراوى؟

– أيوه يا افندم.

يضع الحديد فى يديه. أحاط به رجلان، قيل إنهما من مباحث

المركز. وابتعد الثلاثة عن الضهرية. إن عيون الرجال تلاحقهم. والرجال الثلاثة فى سيرهم البطئ يبتعدون، ويصغر حجمهم كلما ابتعدوا. وفى النهاية أصبحوا نقطة باهتة السواد معلقة على حافة الأفق.

واختفوا تماماً.

وانقطعت أخبار مصرى بعد ذلك عن البلد.

***

- يا سادة يا كرام، ما يحلى الكلام إلا بذكر النبى، عليه الصلاة والسلام:

- صلى الله عليه وسلم:

قال الراوى:

- قلنا فى الحكم والأمثال:

- الأسد أسد وإن كلت مخالبه.

***

السفر

١ – السفر :

– هل أنت مسافر ؟

يسمع سؤال أمه، تنطبق شفتاها على استفهام جارح، يقف أمامها، يتطلع لها فى صمت. . يرفع يده محاولاً أن يلوح بها دليل الموافقة، تقف يده المرفوعة فى منتصف المسافة بينهما، ترف الكلمات على الشفاه كالطير الحبيس، يكويه الحنين، يشعر بعطش حارق، رغبة فى الارتواء، فى وضع رأسه المتعب على الصدر الجاف الذى يواجهه، من الآن وحتى نهاية العالم. انتهت الاجازة أخيراً. خمسة أيام بلياليها، تبدو له كحلم، كغمضة عين.

حاول أن يبدد وحشة الصمت.

– إن شاء الله مسافر.

لم يجد غير هذه الكلمات فى خاطره. وفى لحظات الوداع، يوجد دوماً بين اثنين يفترقان بعد ألفه، شلال من الكلمات التى لا تنتهى أبداً، لا يفهمها شخص ثالث، ولا تقال هذه الكلمات إلا فى اللحظات الأخيرة. غير أن «الدبيش» لم يتكلم. بدا له أن الصمت هو بر الأمان الوحيد، فصمت.

أمه تقف أمامه، الوجه غابة من التجاعيد، العينان نقطتان غائرتان فوق الخدود، تنظران له، نظرة ذات تفوق خاص، انه يشعر أن هذه النظرة قد انجزت كل الأمور الخاصة به معها. ومن خلف أمه، تبدو لعينيه مكونات بيت ريفى قديم، تفوح منه رائحة العوز والحاجة.

والده واخوته فى الحقل، والحقل بعيد. وهو مسافر الآن، ولحظات الفراق مرة المذاق، صعبة على اللسان.

تلك هى بداية قصتنا.

وهى كما ترون متوجة بالحزن، مبللة بالأسى. يقف شاب، يرتدى ملابسه الرسمية، ملابس الجيش، امام أم، لا يبدو منها من بعيد سوى السواد، ويمكن أن يقال، إن اللون الأسود بكل تدريجاته سيد الموقف، جلبابها أسود، على الرأس طرحة قديمة، بهت لونها، الأرض تحت الأقدام تراب، وهو درجة من درجات السواد. والحائط خلفها، كان رصاصى اللون، فى الزمان القديم، أيام العز التى ولت، ولكنه ومع مرور الأيام، غطته طبقات السناج الكثيفة فبدا أسود.

إن مشهدنا لن يكمل دقيقة أو دقيقتين، رغم أهميته فى القصة.

وقبل أن يستدير الدبيش، هارباً من وقع اللحظة عليه، سألته أمه السؤال القديم.

– (فاضل قد ايه يا ابنى وتخلص؟).

تتلوى الألفاظ فى فمه، ترف فى نفسه، كل الأمنيات المؤجلة :

– (لسه بدرى .)

يكمل :

– لما يئون الأوان.

همست أمه :

– فرجه قريب.

وقالت ملامح وجهها، كلاماً عن الحال، والحاجة والعوز والأحتياج وأكدت عيناها أن صبر أيوب نفسه نفد، وأن الأنتظار طال، ثم ومتى يأتى الفرج.؟

استدار سريعاً، خيل إليه أنه يرفع يده تحية لها وسار خطوة، وسمع همساً مبحوحاً. قالت أمه كلمات، طار على جناحيها إلى عالم آخر. كانت الكلمات ناعمة، أحس حيالها بإحساس الإنسان عندما يسمع من شخص يحبه، كلمات طيبه. أن الكلمات تسعده، دون أن يعلم الموضوع الذى تدور حوله.

خرج من المنزل. يده اليمنى فى جيبه الأيمن، وفى يده اليسرى، حقيبة من الورق اشتراها من البقال لا يعرف ما بداخلها، فأمه هى التى رتبت ما بداخلها، غير أن بقعاً كانت تنتشر على جدارها الخارجى، كانت تعلن عما بها. ومن حوله، كانت القرية غارقة فى سكون ساعة العصارى، سار الدبيش فى داير الناحية. وفكر فى أول اجازة حصل عليها. شاب فلاح خلع الجلباب المقلم ليرتدى بنطلوناً أصفر. وملأت أنفه رائحة الملابس الجديدة، التى ذكرته بليالى الفرح وأيام الأعياد. فى عينيه خضرة الحقول الربيعية، وفى القلب أنين السواقى فى ليالى الصيف المقمرة، وفى أذنيه أصوات الحقول الليلية، ووشيش أعواد الذرة، وهزات النخيل والأشجار، وعلى ملامح الوجه، كنت تقرأ لفحة شمس ساعة القيالة القاسية، نسمات أول الليل الطرية. ومن عاداته كنت تعرف أن النوم على الأرض متعة، وأن القناعة والرضا بالقليل من أهم صفاته.

الوقت ساعة العصارى، والشوارع والحارات، تبدو خالية موحشة. وصل إلى مدخل البلد، وبعد المدخل، كان الجسر. هناك انتظر سيارة يذهب بها إلى أقرب البنادر. البلدة تبدو له الان، فى مواجهته وهو ينظر لهابنهم، ويشعر أن المرئيات والبيوت والأشجار والسماء النائمة فى قاع الصورة تستقر بداخله، تذوب فى دفء الحنين فى نفسه. وامتدت له الأيادى، أكف مشققة من المنتصف، خشنة، سلمت عليه، ضغطت على كفه الذى غدا ناعماً فى الأيام الأخيرة، سألوه عن الحال هناك.

– الحمد لله.

– تستاهل الحمد.

سمع كلاماً كثيراً. تدفق من أفواه الواقفين حوله، وراح ينظر اليهم. أن بعضهم على سفر مثله، وينتظر سيارة، والبعض الآخر يقف هنا، محاولاً أن يضيع الوقت المطوط الممل، حيث لا عمل فى مثل هذا الوقت من النهار، وعادت الكلمات تصله خافتة كالأنين. وميزت أذنه كلمات تناثرت وسط الأحاديث الدائرة، كلمات عن الصبر والألم والأنتظار وفرقة الأحباب، وكرروا سؤالهم له، عن الحال هناك، فلوح لهم بيده، دلالة أنه لا يريد أن يقول شيئاً. وقالت لهم ملامح وجهه المتعبة ما يريد قوله.

– يعنى.؟

– يعنى تمام.

– طبعاً.

ولتصورهم أن كل المجندين، فى مكان واحد. وأن الدنيا صغيرة مثل بلدهم، راح كل منهم يسأله، عن ابنه أو أخيه أو قريبه، وهو متأكد أنه لا بد وأنه يعرفه.

– فى أى سلاح ؟

– نعم ؟

– فى أى سلاح ؟

– واللّه. . أصل.

– الجيش كبير، وفيه أسلحة كثيرة.

يحاول السائل أن يتذكر، ومن المؤكد أنه لا يعرف، ولكنه أمام الواقفين، وبعضهم غرباء عنه، يسب الذاكرة الضعيفة، ويلعن أيام النكد التى أنسته أعز الأشياء، ورغم هذا فبعد قليل. يحمله السلام لأبنه، ويطلب منه أن يعاتبه، أن الجوابات قليلة جداً. منذ أسبوع مضى، ولم تصلهم منه رسالة.

– وهل هذا كلام؟

يكمل، أن المراسلة، نصف المشاهدة، وأن المجندين بخلاء، ويضع يده فى جيبه، فى محاولة فكهه، سيعطيه ثمن ورقة (البوستة)، والظرف والأقلام، ويمنعه الواقفون، ويقول أحدهم. أن المشاكل هناك هى السبب، ويقول آخر أن الحياة عندهم صعبة، وأن وضعهم فى

الجيش مختلف عن أى شئ آخر، يجب الا يشغلوهم بالجوابات. وخلافه.

- كان الله فى عونهم.

أن الحديث يوشك أن يتوقف، والكلمات تنطفئ ويسمع الدبيش أدعية خافتة، ويرى نظرات وجلة تمسح السماء، وكلمات تطلب له ولزملائه التوفيق والسلامة ثم ينصرف كل لحال سبيله

٢- البيع والشراء :

عندما حضرت السيارة، لم يكن بداخلها مكان.

وقف فى الخارج، وسارت السيارة، وراح ينظر نحو بلدته أنها تدور ببطء، وتبتعد عنه، هابطة. وتعجن عيناه منظر بلدته، وتتداخل المرئيات، ولا تبدو له سوى الألوان، اللون الرمادى الغامق، والأسمر، والخضرة الزاهية، ثم اللون الأزرق الصافى. أن آخر ما رآه كان المئذنة، مئذنة جامع صفراء اللون، عليها أتربة، تبدو متجهة نحو السماء، تشرب من قلبها الأزرق المعطر بهدوء ساعة الغروب.

سأل نفسه، وهو يستدير، متى سيضع قدمه على تراب بلده مرة أخرى. وفى أعماقة كان هدير الأنفعال يؤنس وحشته.

فى البندر البعيد، أشترى ما يحتاجه، وقف محتاراً، أنه وزملاءه محتاجون للكثير، ولكنه راح يختار. قلب واشترى، حاسب ودفع الأثمان وأخذ الباقى. وكانت الحصيلة : ابرة، خيط أسود وأصفر،

علب ورنيش، كميات من الكبريت، مجلات قديمة، ورق أبيض، أظرف، أقلام حبر جافة، أربطة للحذاء الأسود، والكاوتشوك الأبيض، منديل، مرآة صغيرة، حجارة للراديو الترانزستور، وضع ما اشتراه فى حقيبته. وكان يتصور فرح زملائه بما معه، فيشعر بدفء السعادة يلف قلبه. وفى مسيره، كان يود أن يشترى الشارع كله، بكل ما فيه، الأنوار الباهرة، المأكولات، الناس، بل كان يفكر كيف يأخذ معه قليلاً من اجتماع الناس فى مكان واحد. ليؤنس وحشة زملائه. وليبدد كآبة الصمت الليلى. أتجه إلى شارع آخر سيشترى وجبة عشاء هذه الليلة، له ولزملائه، أكلة طازجة يشتريها بلا تفكير سابق، حسب ما يجده. وقف أمام أكثر من بائع، عاين وفكر وسأل عن الأسعار وأخذ ما يريده، ونظر حوله فوجد كل شئ يسبح فى بحر من الأنوار فعجب من أمره.

كان القطار سريعاً. وكان قد دخل وسط الرمال وخلف وراءه الأرض الخضراء. نظر أمامه، تلال من الرمال خلفها جبال عالية، تلف وتدور، فى حركة نصف دائرية، مركزها القطار. كان يجلس بجوار نافذة. وشعر انه يغفو ويغمض عينيه. وتذكر كلمات أمه وراح يتصور لحظة وصوله إلى المعسكر. تسليم التصريح، السلام والتحايا. خلع بدلة الفسحة، ارتداء الأفرول وضع يده فى أيادى معروقة جافة خشنة، العناق، القبلات من شفاه مالحة الطعم، السؤال والجواب، محاولة معرفة ما حدث خلال غيابه. بدء الحديث

عن ضجة المدينة الكبيرة ولغطها وزحامها، ورائحة لغه جديدة عليه، وهى لغة البنادر البعيدة، وتوديع لغة قريته الصغيرة، لحظات الغروب فى وحدته. آلام الصمت، النظر إلى سماء هادئة.

على مشمع قديم، أمام الخيام، جلس وسطهم :

– أخبار البلد.

يفاجئه السوال، يتوقف لاقل من دقيقة.

– الحمد لله.

على المشمع يضع ما أحضره من الطعام.

سأل زملاءه أن كانت قد حدثت تحركات، أو تنبه عليهم بالاستعداد لعمليات، أو الخروج فى مشروعات أو أى تغيير فى نظام الخدمة.

– والسؤال، ماهو مبرره ؟

يلمح ضيقاً على ملامح الوجوه :

– الحال كما هى.

يقولون له، أن الحال لم يتغير عن يوم سفره، بل ولم تتغير عن يوم نزوله اجازته الأولى، منذ سنوات لم يزد ولم ينقص شئ. كل ما يحدث محدد. النوم والأستيقاظ، الكلام والصمت، الجوع والشبع، الظمأ والأرتواء، الطوابير بأنواعها المختلفة، ليالى الخدمة وليالى الراحة، غسل الملابس ونشرها على الأسلاك الشائكة، ورفع العلم ساعة الهتاف، نوبة الصحو، المحافظة على مواعيد النوم،

التمشى ساعة العصارى كل بمفرده، يحدث نفسه كالمجانين، العودة قبل سقوط الليل، خوفاً من التوهان فى وسط الصحراء، الذهاب إلى شاطئ البحر وقت الظهيرة، دهشة الدبيش، وهو يشاهد – لاول مرة – بحراً بلا شاطئ أخر، جلسته على الشاطئ، المياه فى زرقة السماء. مذاب فيها كل أملاح العالم، أصطياد السمك، العودة، النظر إلى الأديرة على الطريق بين البحر والمعسكر، العجب من تلك المناطق الخضراء كالرحمة وسط الصحارى الواسعة. وفى هذه الأماكن البعيدة عن العالم، ثمة وشايات صغيرة، وأحقاد، وفى الصدور مساحات للأحلام والمنى والآمال. أنها تطفو على السطح، ويفرحون بها، كمحاولة لكسر الدائرة المحيطة بهم. محاولة كل مساء، لغسل كآبة اليوم الميت، تمزيق لحظات الأنتظار الممطوطة، بالكلمات والحكايا. كانوا يودون أن يقولوا له أنهم يلعبون الورق، هناك خلف الجبل، يلعب أربعة أثنين أثنين، ويتولى الخامس حسابات الربح والخسارة ويراقب سادسهم الطريق. أنهم يلعبون السيجة ويوغلون فى السير بعيداً، وبعضهم قد تاه وسط الصحراء.

(أنت عارف اللى حصل من يوم ما نزلت) – تكلم أحد الأفراد وهو ياكل – يادبيش، خمسة أيام وخمس ليالى، طول عراض، بطول العمر نفسه، مروا. مروا لان الليل والنهار لابد من أن يتعاقبوا. سنة الحياة. إنما كيف تم دا. لا تسأل أبداً. نرجوك جميعاً الاتسأل.

٣- بريد حربى :

«وبعد

وصلت بسلامة الله إلى المعسكر، مساء اليوم، أنا بخير. صدقونى. ولا ينقصنى سوى مشاهدة رؤياكم الغالية. طمنونى عليكم واطمئنوا. سلامى إلى أهل المنزل، فرداً فرداً، وكل واحد بأسمه.

وحتى نلتقى».

٤- رغوة الكلام :

آخر الليل.

جلسوا أمام الخيام، تكلموا كثيراً، علقوا على كل ماحدث. حاولوا التنبؤ بما سيحدث. حكوا الحكايات من خيالهم. ومع قدوم الساعات الأولى من الليل، فترت همتهم، وجفت الكلمات على الشفاه، وماتت عبارات نسجتها اللحظة الحاضرة.

- هيا إلى النوم.

ككل يوم. أخرج كل منهم مشمعه، فرشه على الأرض، وضع مخدته تحت رأسه، فرد بطانيته. واستعدوا للنوم. ان جو الخيمة، يبدو مطعوناً بمساحات الظلام، انه يبدو فى سواد ليل العشاق. ولكن كل منهم، كان يدرك طريقه، ويعرف المكان الذى سينام فيه. ان نوعاً من الدربه والمهارة فى التعامل مع جو الخيمة، دون أنوار، قد علمتهم إياه الايام الماضية.

- تصبحوا على خير.

كان من المفروض أن يناموا. ان الوقت بعد العاشرة، غير انه ثمة لذة خاصة، فى الحديث وهم نيام، حتى لو كان هذا الحديث همساً. ومهما قيل، خلال اليوم من الكلمات، ومهما تعاركوا وتشاجروا وتماسكوا بالايدى، فإن الهمس والنجوى فى آخر الليل فى هذه الخيمة الصغيرة، له طعم خاص.

- والاجازة القادمة متى ان شاء الله؟

انفجر الآخرون بالضحك، ولكن بصوت مكتوم. كان صاحب السؤال هو الدبيش. العائد من اجازته الليلة. تناولوا سؤاله بالتعليقات، ورغم شلال الكلمات الهادرة طوال النهار، فإن بعضهم، يشعر الآن، بأن فى داخله عالماً باكمله من الكلمات، التى لم تقل. قال له زميله :

- دبيش، طبعاً قابلت السنيورة.

لم يرد، انهالت التعليقات من زملائه، وسمع تنهيدات وكلمات شوق، ولمعت العيون، فبدا لمعانها رغم الظلام. ود ان يتكلم، ولكن الكلمات بدت له كالحجر فوق حبه القلب.

سأله زميله :

- بتحب يا دبيش؟

شعر أنه يبتعد عنهم. وراح زملاؤه فى هدأة الليل، يحكون قصص حبهم، كل منهم يحاول أن يحكى قبل الآخرين، وقاطعوا

بعضهم، غير انه شعر أنه وحيد. حوله الآن ثلاثه من زملائه. غير أن وحدة ثلجية جمدت روحه. فراح يفكر فى صمت.

تحدثوا، كان الحديث يدور بينهم جميعا فى أول الأمر، الا أنهم تحولوا بعد هذا، أصبح كل اثنين يتحدثان على انفراد، وراحت الأفواه، تتحرك فى الظلام والكلمات، عادة، تشتعل من بعضها، وتزداد حمى الحديث. ومع حديث الليل الهامس. يبدو التدخين رغبة رائعة. والمشكلة من الذى يبدأ باشعال سيجارة، وستكون سيجارة واحدة، تمر عليهم جميعاً، ويكون من السهل اخفاؤها إذا انكشف أمرهم.

– ولكن التدخين.

– للضرورة أحكام يا أخى.

– أشعل السيجارة ياجندى.

– نحن نحتفل بعودة الدفعة دبيش من اجازته الميمونة بسلامة الله.

ولم يكن ثمة كلام أخر يقال، فهم يعيشون فى مكان بعيد، منسى، لم يعش فيه من قبل أحد. ولن يسكنه بعدهم فرد ما. مهما كانت الظروف. وحزنهم الوحيد، انهم يعيشون فيه بلا عمل، يتلهفون على يوم المهمة المنتظرة. لم يكن فى حياتهم أى جديد، يمكن أن يتحدثوا عنه، فالحياة شحيحة، بخيلة، والصبر والانتظار أصبحا بلون الصحارى البعيدة، وصمت البحار المترامية الأطراف.

وفى أحاديثهم، سبق ان تكررت الكلمات حتى فقدت مذاقها فى الأفواه، وخرجت من قواميس حياتهم، عبارات حفظوها من أيامهم الأولى. أيام الاشتعال بالحماس والاحلام. عبارات عن التدريب والطوابير والمشاريع والمناورات. ولكن ما مبرر استخدامها الآن.

وبهذا نصل إلى مشهد الختام فى قصتنا.

الاربعة نيام على ظهورهم. والدخان لا يبدو وسط ظلام الخيمة، غير ان السيجارة تبدو كوميض خاطف بين الحين والحين. وخلال هذا. فان وميضها الأحمر الذى يشتعل ثم يعود إلى الذبول. ان هذا الوميض ينتقل، انه يلف بداخل الخيمة على شكل مربع. وفى الخارج كانت نسمة هواء ليلية، لينه. تهب من ناحية الشمال. حاملة رائحة الخريف معها. وسط الخيام المتناثرة. وفى صمت الليل. كانت نداءات الساهرين فى الخدمة تذيب صمت الليل، وتبدد وحشته.

– من هناك؟

– قف من أنت؟

– كلمة سر الليل؟.

– تقدم.

***

في الاسبوع سبعة أيام

ماشفناك يانور

الا لما دابت العيون

« مثل شعبى قديم »

(١) مدخل لامبرر له
ولكنه يقوم مقام المقدمة

وقت العصارى، دق تليفون دوار العمدة، لم يكن الكاتب موجوداً، رد عليه الخفير النوبتجى. طرد نوم العصارى من عينيه، ونفض كسل اخر النهار. وقام، أمسك المسما. لامست أذنه خروشه، بعيده، أبعده، وبدأ ينصت. لكى يكون انصاتا تاماً. مد أصبع يده، سد به أذنه الأخرى. أمال رأسه على المسماع، رفع صوته:

ـ آلو يا نقطة.

ثم صمت. كان اليوم ينحدر بتثاقل نحو نهايته. وهو يبدو يوماً خريفياً هشاً وهادئاً. المار أمام دوار العمدة. فى ذلك الوقت، لم يكن يسمع سوى كلمات قليلة، منتزعة من جملة، مبتورة المعنى، تخرج مهذبة من فم الخفير:

ـ نعم. أيوه، مضبوط، أى أوامر.

آخر كلماته كانت:

ـ أنا الخفير النظامى. من قوة حراسة قريه الضهرية التابعة لنقطة بوليس التوفيقية، مركز إيتاى البارود بحيرة ياأفندم.

خرج الخفير من حجرة التليفون، حرك يديه أمام وجهه، دافعاً بهما الهواء، مجففاً بهما حبات عرق، نبتت فوق جبهته رغم برودة الجو. اتجه إلى دوار العمدة. فى الناحية الأخرى من الباحة الواسعة.

أكدت خطواته أهمية وخطورة مايحملة. السماء لونها بنفسجى، وسحب الخريف اللبنية اللون مشرشرة الحواشى والحدود. داخل دوار العمدة عند مروره على الزريبة، صافح وجهه هواء بارد مشبعاً برائحة البهائم والتبن.

العمدة كان نائماً. نومه ما بعد الظهر، وما قبل آذان المغرب. الخفير أكد ان الأمر خطير.

التأجيل قال الخفير- فيه ضرر.

الكلمات قيلت فى ايجاز لم يكن من عادته. وكان العمده قد خرج فى لباس بيتى من حجرة نومه. فرك عينيه اللتين بدتا حمراوين من نوم النهار. جلس ونظر إلى الخفير الذى وقف وراح يبحث عن الكلمات فى ذهنه كى ينقل الأمر بخطورته كاملة إلى العمدة.

- المأمور اتكلم ياحضرة العمدة :

- بنفسة؟

- قصدى معاون النقطة

- هوه؟

- طبعاً.

أخذ الحديث بين الجالس والواقف أمامه شكل السؤال والجواب، بكلمات قليلة تكامل الموضوع فى ذهن السائل والمجيب معاً، بسرعة أدرك العمدة المطلوب. الخفير لا يعرف القراءة أو الكتابة، لذلك فالتعليمات كانت شفوية، جملة واحدة نقلها الخفير كما هى:

- الأمر عاجل جداً.

حفظها لأنها كررت عليه فى التليفون اكثر من مرة. قبل المغرب. كانت أربعة بنادق تتحرك فى الشارع الرئيسى للبلد على شكل هرم: رأسة للأمام وقاعدته للخلف. الهرم كان يبدو كالتالى، شيخ الخفر، وكيلة، وراءهما أثنان من الخفر. الوقت هو وقت عودة الفلاحين من حقولهم، وأرض الحوارى تئن وتتأوه تحت أقدام الحيوانات بحوافرها الحديدية. فى يد شيخ الخفر ورقه بها أسماء. أمام كل اسم. خانة للعنوان وأخرى للتوقيع. خانة العناوين كانت بيضاء. فشوارع وحارات القرية بلا أسماء. والبيوت ليست لها أرقام. والكل يعرف البلد ككف يده على المصاطب. تهامس الرجال. دار الكلام كسولاً بطيئا، خرج من الأفوة الخائفة غير واضح ولامحدد.

- سحبوا الرديف الليلة.

نهر من الأسئلة والتعليقات يزحم جو المصاطب، وفى صحن الجامع، وأمام دكاكين البقالة.

- الرديف والأحتياط.

- الأثنين واحد.

- لأ فيه فرق.

على أبواب البيوت كان موكب الخفر يتوقف، تصفق الأيادى، تخرج من بين الشفاه نداءات معروفة:

ـ يا ساتر، يا أهل الله.

تطل عيون نسوة وبنات وأطفال. الكل فى ملابس البيت. أول ما تشاهدة العيون البندقية المعلقة فى الكتف المغطى ببالطو أميرى أصفر، تثقيل وخشن، وتجرى نحو الداخل، بعد أن تخبط الباب فى وجهه، وتعود. ويبدو واضحاً أنها ارتدت ملابس تظهر بها أمام الرجال الغرباء.

البيوت كثيرة، والأسماء مختلفة، والشبان لم يكن وقت وجودهم فى البيت قد حل، فهم أما فى الحقول، أو عادوا منها وذهبوا إلى المسجد للصلاة، أو وقفوا على رؤوس الحوارى أو أمام الدكاكين فى انتظار آذان المغرب.

التنبيه واحد بالنسبة للجميع، شيخ الخفر بنفسه. كان يقول:

ـ لادا لازم بسلم نفسه فى المركز.

ـ امتى؟

ـ الليلة... يعنى بعد ساعة.

ـ وما ينفعشى بكره؟

ـ لأ.

ـ المركز . . المركز.

ـ مكتب التعبئة.

ـ إيه.

ـ التعبئة . . التعبئة

تدور الكلمة فى الأذهان، يحاول البعض أو أن يفهمها، البعض الآخر يطلب من شيخ الخفر. أن ينطقها مرة أخرى، فهى الكلمة الوحيدة التى تخرج من فمة بلغة أهل المدارس والأفندية وسكان البنادر البعيدة. شيخ الخفر لم يكن يجد صعوبة فى نطقها بشكل سليم. على كل الأبواب. كانت تزحم الهواء عبارات وتساؤلات وكلمات متناثرة من الأفواه، بتناثر معها رذاذ يبلل الوجوه.

ـ ليه خير؟

ـ الأوامر كده.

ـ هو فيه حاجة؟

ـ أوامر الحكومة.

ـ ياترى حايرجعوا أمتى؟

ـ العلم عند الله

ـ دا ابنى لسه طالع من شهر.

شيخ الخفر. كان ينهى الحديث بكلمة فاصلة:

ـ الأوامر هية الأوامر.

ينطلق لسانه بعدها. فى ذكر أنواع العقوبات المختلفة لمن لايذهب الليلة إلى المركز. سجن. غرامة. الغاء حيازة الأرض. حرمانه من عضوية الجمعية الزراعية. شيخ الخفر يؤكد أن هيبته هى هيبة الحكومة نفسها. ولا مانع لديه من أرهاب الناس، وتخويفهم فى كل لحظة. وعندما كان يبدأ فى ذكر أنواع العقوبات، كانت الأيادى ترتفع فى وجهه. وهو فى منتصف حديثة، تقاطعة:

ـ خلاص رايحين. بلاش كلامك ده.

أذن المغرب. سمع شيخ الخفر صيحة الأطفال «المغرب ادن افطر ياصايم» فخلت الحوارى من الناس. وأصبحت البلد شبه مهجورة. قرر أن يكمل جولته، حتى آخر البلد، وبعد الأفطار يمر على العزب والكفور. المتناثرة حول البلد. عزمت عليه أكثر من أسرة.

ـ أنت صايم ياراجل.

ارتفعت يده إلى صدره ورأسة علامة على الشكر. أحد الرجال استوقفهم، ودخل منزله، خرج ومعه شراب بارد

ـ غيروا ريفكم بس.

كلما تقدم السير، بدأ الليل أكثر تأكيداً، وأصبحت قراءة الكشف عملية صعبة. فى داير الناحية، الشارع الذى يدور حول البلد كلها على شكل حزام، كانت المهمة سهلة نوعاً. أعمدة النور ترسل الضوء الكافىء للقراءة، فى الحوارى الضيقة، كانت مساحات الظلام تبتلع كل المرئيات بداخلها. القراءة كانت تتم من خلال حزمة ضوء خارجة من نافذة أوباب، أو على السنة كرة من الضوء الأصفر المتراقص المنبعث من عود كبريت. أشعله أحد الخفراء، وتظل الكرة تصغر، ويبهت نور هاحتى تنطفىء، بعد كل بيت كانت يد شيخ الخفراء، تمتد ببقايا قلم كوبيا، ضاع طلاؤه الخارجى من كثرة الأستعمال كى يشطب أسماء، ويدون كلمات أمام أسماء أخرى. كان يكتب مسافر خارج البلد، فى المستشفى، سيقدم كشف عائلة.

شعرب البلدة كلها بجدية الأمر، عندما انطلق بعد أذان العشاء مناد، لف البلد. إن صوته يخرج من بين أصوات الأطفال، الذين يلعبون فى الشوارع، ينطق بأول كلماته:

ـ ياعباد الله.. جاءنا من نقطة بوليس.

يستمر النداء. والكل يستمع. إلى أن ينهى نداءه بالعبارة التقليدية.

ـ والحاضر يعلن الغايب.

ما أن ينزل يده من فوق خده الأيمن، حتى تحاصره آلاف الأسئلة دفعة واحدة، المنادى ليس موظفاً، لايقال عنه رجل حكومة، ولذا فهو يعطى نفسه الحق فى الشرح والتفسير والتحليل، وله وجهة نظر يقولها، أنه يقف على رأس الحوارى، وأمام دكاكين البقالة وفى الباحات، لايرد على الأسئلة، وبقدر ما يشرح تصوره هو للأمر:

ـ دى تجربة ياجماعة.

ـ تجربة؟

ـ بيجربوا استدعاء الاحتياط ونسبة التخلف.

ـ يعنى أيه بيجربوا.

ينطلق المنادى، فى حديث طويل، ترد على لسانه كلمات جديدة على الآذن لم تتعود سماعها من قبل:

ـ تسريح الاحتياط، خطة التعبئة، تجربة كل شهر، دقة عمل النظام، كفاءة الاستدعاء.

- وعرفت دا كله منين.

عند هذا يتحرك المنادى. الكل مشغول بما قاله. أما المنادى نفسه، فهو معنى بأمر آخر. انه ينادى فى شوارع مضاءة. من قبل كان يعوم فى بحار الظلام. تخرجه حزمة ضوء صغيرة منها، ليعود إليها. الآن له ظل فى الليل كما فى النهار. أنه يسير وبعد عدد معلوم من الخطوات. يرفع يده، يقول نفس النداء. ويتوقف كى يجيب على نفس الأسئلة.

صلاة العشاء فى المسجد. الحديث عن حكاية استدعاء الاحتياط، بعد الصلاة تحولوا الى جماعات صغيرة، قيل كلام كثير فى الموضوع. وراح الكل يعد على أصابع يديه، محاولاً أن يعرف عدد الذين سيذهبون إلى المركز من البلد.

فى الضهرية. للسفر والفراق والبعد عن الأرض والبيت والأهل حنين خاص. لاتعبر عنه الناس بالكلمات، يجدون فى الصمت والثرثرة والهروب. حيطان أمان يسندون عليها قلوبهم المتآكلة. مر بالضهرية غرباء. مسافرون فى الليل. قالوا عن قرى الناحية الأخرى. دمسينا، السوالم، دششتوا الانعام، نكلا العنب. الحال فيها واحد. الكبار والصغار تحدثوا، قيلت حكايات عن الجهادية والسلطة والجيش المرابط وأيام السخرة، وسنوات العسكرية الخمس التى أصبحت ثلاثة ثم سنة للمتعلمين. قالوا الكثير عن الرديف والخدمة فى بلاد الدماء الحارة ومدن الثلج والضباب. الشيخ عبد الله خطيب

المسجد كان موجوداً، ورغم أنه فوق الثمانين من العمر، إلا أنه أخرج حافظة نقوده. فتحها ببطء عبثت أصابعة يجيبها. أخرجت صورة تكسرت ملامحها، وتاهت معالمها. أفسحوا برؤسهم ممراً للضو. شاهدوها، قال انها صورته، مد أصابعة، أشار بها، حاول أن يلفت النظر لطربوش فوق الرأس، وثلاثة أشرطة على الكتف الأيمن. وحذاء ضخم فى القديمن. وقالشين صوف يلف الساقين. والعيون تشكل حلقه من البريق، فى الصورة رجل يقف كعمود النور الممتد فوقهم. ان حكاية الشيخ عبد الله تبدأ الآن. صوته يأتى هادئاً وادعاً. كخرير المياه فى الحقول البعيدة. يرق صوت الرجل وتسيل ملامح وجه. وتصفو الحياة من حولة. الحكاية معروفة. شاب ريفى، نصف متعلم جند فى الجيش، منذ أكثر من نصف قرن، كاد يصل إلى رتبة الضابط لولا.

تنحدر بهم الحكاية نحو الماضى. حتى تصل إلى هوجة عرابى باشا. فيها سفرات إلى غابات السودان وجبال الحبشة ومدن يركب سكانها الأفيال، يعودون من رحلتهم على أجنحة الكلمات إلى حكاية المجندين أبناء البلد. كلهم جنود، فيهم ضباط ثلاثة فقط. اثنان احتياط وواحد عامل رتبته. صغيرة، فلا يزين كتفية سوى ثلاث نجوم لامعة. .

موعد السحور يقترب، ولكنهم مازالوا فى جلستهم، الحديث فى مثل هذه الجلسات مثل موج الحر، الجايات أكثر من الرائحات فيه.

والذاكرة تمنحهم عالماً من الحكايات والأصوات والأسماء والتواريخ، فيمتد حبل الحديث.

فى نفس الوقت، كان شيخ الخفر، يدق فوق باب دوار العمدة. عندما قابله، خرج بخار من فمه، ففضح كلماته:

- تمام يافندم.

ثم التنبية على البلد كلها، ماعدا.

لم يرد العمدة. ذهب إلى الدوار. فى حجرة السلاحليك جلس على مكتب الخفير النوبتجى بنفسه، أمسك التليفون وأداره يده. رد عليه معاون النقطة. كان ساهراً فتعجب العمدة. أعاد عليه الكلمات التى سمعها من شيخ الخفر.

فى الباحة الواسعة أمام الدوار. وقف العمدة ومعه شيخ الخفر والخفراء ردوا سلام أكثر من رجل مر عليهم،تطلع العمدة إلى السماء. وشبك يديه على صدرة. طلب من الخفير النوبتجى أن يظل ساهراً بجانب التليفون. خطا نحو داره خطوتين ثم توقف واستدار.

- تصبحوا على خير يا جماعة.

ردودهم أتت متباينة الأصوات، تخدش صمت الليل :

- وأنت من أهله يا حضرة العمدة.

(٢) عندما ذهب مصطفى إلى المركز وعاد منه بملابس الجيش

فى قريتنا أغنية قديمة، تقول كلماتها. ان كثرة الوادع. ترقق قلب المسافر. وتسلبه القدرة على مواجهة متاعب الرحيل، إلى البلاد البعيدة. أسير الآن فى طريق العودة إلى الضهرية، فى ذهنى تطن كلمات أغنية الأيام العجوزة، راسمة عالماً باكملة، لما سأواجهه فى البلد بعد قليل. . .

لأمسك بعقد حكايتى من أول حياته.

العودة من الحقل، مصطفى يتمهل فى سيره. العين على القدم، فأمامه تعترض الطريق قناة، تعكس مياهها ظل شجرة وجزءاً من سماء رمادية، تفاداها، وقف على جانب الطريق واستدار بيده وصوته عاون بهائمه على تخطيها، وخلال استدارته، اصطدمت قدمه بطوبه، وقعت فى القناة فعكرت مياهها وتموجت، واستطالت الصورة وقصرت فوق مساحتها، عند مدخل البلد، من الناحية البحرية، نادى عليه شيخ الخفر. وقف فوقفت بهائمة فى غير انتظام. الأوراق التى فى يده عرفها مصطفى، طلب استدعاء. أعطاه الأصل وأخذ الصورة. طلب منه التوقيع بالاستلام أفهمة بضرورة الذهاب إلى المركز الليلة، أو صباح الغد على الأكثر.

- وذنبك على جنبك.

قالها وهو يسير مبتعداً.

رفع مصطفى عينيه، كان جلباب الشيخ أحمد فوق منئذنة المسجد، تعبث به نسمات الغروب . حاول أن يسرع فى سيرة، البهائم كانت بطيئة. فى البيت دخل الزريبة. تماما مثل كل الأماسى. ربط البهائم، وضع العلف لها فى المداود. أثناء خروجة من الزريبة، لفت نظره بطن الجاموسة المنتفخ، وبدت له قدماها الخلفيتان مقوستين من ثقل الحمل عليهما.

حول الطبلية، أمه وأختة والغزالى. شقيقة الأصغر، أنهم يأكلون. وسط صوت اصطدام الملاعق بالأوانى والأطباق، وتشدق الافواة بالطعام، قال بشكل عرضى:

- انطلبت للعسكرية الليلة. .

توقفت أمه عن المضغ، وأطل من داخل عينيها تساؤل مبهم، وتحول وجه أخته إلى علامة استفهام، فى الأشهر الأخيرة، تعود ان يذهب الى المركز، أول كل شهر. حيث يوقع له، فى سجل معه، بالحضور. وكل ستة أشهر كان يذهب إلى وحدته القديمة، عشرة أيام للتدريب، كان هذا نظاماً متبعاً. ينفذه بدقة. الأمس كان يوم الاثنين، أول يوم فى الشهر. ذهب مصطفى إلى المركز وعاد . .

الأشهر الستة الثانية لم تنقض بعد، وفى هذه الفترة كان مصطفى يحمل علامة خارجية فوق الجلباب، كان يلبس سترة كاكيه قديمه، فوق الكتف شريطان. كل من يشاهدة، كان يعرف الحكاية يسألة على الفور.

- طلعت من الجيش امتى يادفعة، ازيك. .

اكمل طعامه، شبع وقال الحمد للّه، غسل يديه، وأخذ كوب الشاى المعد، بدأ يتحدث، الصوت خافت والكلمات تبدو عادية، حديثة عن البيات الشتوى فى الحقل، قلب الأرض، رى البرسيم. تسميد أرض القمح، تنقيه الحشائش من خطين فول وخطين كرنب على رأس الحقل.

انزلقت على لسانه أرقام، ماله وماعليه، حسابات الجمعية التعاونية. خرج وعاد أكثر من مرة، داعبهم وضحك معهم كثيراً، أخرج من جيبه أربعة قروش وأرسل نوره تشترى قصباً يتسلون به حتى السحور، أخذ وجه الغزالى بين يديه وداعبه، بعد السحور، ذهب كل واحد منهم إلى مكان نومه، خيم على البيت صمت مشحون، لكن أحداً لم ينم. بدت الليله بطول العمر كله. مصطفى ينتظر صيحة ديك. تنشر الفزع والاضطراب بين ديكة البلد كلها. . انتظرها، ولكنها تأخرت كثيراً هذه الليلة.

الصباح، الذهاب إلى العمل، تركه، التوجه إلى ايتاى البارود. سفر عادى. أمام المركز جمع من الشباب يعرف الكثير منهم، سمع اسمه ينادى، تكرر النداء فجرى، كتب اسمه أكثر من مرة فى دفاتر مختلفة الألوان والأحجام، أعطوه استماره سفر، قاده واحد منهم إلى مخزن رطب معتم أخذ مهماته، المطلوب منه أن يسلم نفسه إلى وحدته فى ظرف ٢٤ ساعة.

ركب السيارة الذاهبة الى البلد. وهو فى الطريق، نظر الى الحقول، شربت عيناه خضره النباتات وسمرة الأرض، وزرقة السماء. أحس براحة، شعر أن قلبه الجاف مدهون بطبقة ناعمة من الزبد. بدت له الضهرية، كانت سحب الخريف المتناثرة، تتحرك فى كسل، تكاد تلامس الحطب المنتشر فوق البيوت.

فى البلد، ذهب إلى الحلاق، قص شعره، وحلق ذقنه وسوى شاربه، استحم بمياه دافئة، وبدأ يرتدى ملابس الجيش. وجد نفسه مجبراً مرة أخرى على ادخال قدمية فى بنطلون الأفرول . لبس الشدة. شبك فى كم سترته الأيمن شريطين، وضع الطاقية فوق رأسة، ضبطها ثم خلعها وأمسكها فى يده وشعر بخشونه الجورب الصوف على ساقية، وبثقل الحذاء الميرى الأسود فى قدمية، وبصوته عند المشى على الأرض. الفلاح أصبح فى غمضة عين العريف مصطفى. للجندى فى بيوت الريف رائحة خاصة، لون ملابسه، نعومة جلد ذقنه، شعره الذى لا يبدو من تحت الطاقية الكاكى. ملابسة المغسولة المكوية، وهو لا يشاهد بهذا الشكل. إلا مرتين، لحظة قدومه فى أجازة أو سفرة إلى وحدته.

وقف أمام أمه، لم يتكلم، كانت أصابعها تتحرك، بشكل لا إرادى، كأنها تضرب على أوبار خفية، لحناً صامتاً من الخوف والرعشة والحب. لحناً لم يسمعة أحد.

- مسافر يابنى.

- ان شاء الله.

أكمل:

- خللى بالك من زرعة الشتا.

أوصاها بالحقل، على أصابعة عد مافيه، حوض البرسيم البحرى، يحتاج كيماوي مع الرية القادمة، أرض القمح تبدر مع المناوية، الفول مطلوب عزقة وتنقية الكرنب لابد من اخلاء الأرض منه، تمهيداً لزراعتها خبيزة مع الشتاء.

الصمت بينهما يحتوى بداخلة سيلا من الكلمات والمعانى الدافئة، شملهما هدوء مستتب. لقد بات وقت العصارى مسموعاً. أنهما يسمعان خشخشة أوراق الشجرة العجوز القائمة أمام باب البيت، وحفيف أجنحة الطيور. ارتعش القلب. وعلى طرف لسان كل منهما، كانت تقف كلمات وقصص وحكايات، ولكنها لم تخرج، قبل أن يتحرك، اقتربت منه أمه :

- افطر وبعدين سافر.

- المواعيد، سفر الليل صعب.

تشابكت الأيدى. فى المرة الأولى لسفر مصطفى. فى الزمان القديم. اكتشفت أن طفلها قد غدا رجلاً دفعة واحدة، فى العينين طفولة. ولكت فوق ملامح الوجه بدت خطوط الاعياء والأجهاد ورعشة اللقاء مع المجهول. وفى أصابع اليدين. بدأت خشونة الفأس والمحراث تذوب مع الماء الدافىء والصابون، نظرت فى وجهه طويلاً.

أدركت. ربما لأول مرة أن فى مصطفى الكثير من والده. أنه هو:

ـ الخالق الناطق.

سكبت فى نظراتها عواطف وحديث صامت وكلمات، قالت له، وبسمة غريبة ترقص على ملامح الوجه:

ـ فاكر سفرك أول مرة.

هز رأسة ومن قاع خياله. رأى امرأة أخرى، بها قدر من الجمال، كان الأب موجوداً. وكانت شابة. وكنت طفلاً. الغزالى كان قطعة لحم حمراء، يبدو جزء منها وسط اللفائف ويداه تعبثان بالهواء بلاهدف. آه. كانت أيام.

الرغبة فى الحديث تحرقه، يود أن يقول الكثير ابتلع كلماته. هى أيضا صمتت، ولكن فى لحظة ما لا يدرى أحد متى تأتى هذه اللحظة، ستفرض نفسها رغماً عنهما. وسيغفران لبعضهما بعدها هذا الصمت الطويل المفعم.

الرحيل هذه المرة له طعم. جاء مبكراً كالفرخ البكر الذى يطير من العش قبل الأوان، تفوح من فم مصطفى رائحة الصيام. المغرب لم يحن بعد. طريق السفر سكة فى الخيال. ولكنه طويل. أمه تطلب منه التوقف. فى غرفة المعاش، غزلت مما وجدتة حجاب حب. لم تكن تدرى ماذا تفعل، فردت ورقة مبقعة، وضعت عليها كل ماوجدته، وتذكرت السنوات السابقة، كان مصطفى يطلب منها أن تكثر من كل صنف. فزملاؤه بالخيمة يأكلون معه.

سلم وسار. الحارة، داير الناحية، البيوت والدكاكين والناس. كان عليه أن يسلم ويتكلم، ويجيب على الأسئلة، الهواء خريفى ناعم، والسماء نهر من الزرقة، فى اليد اليسرى ورقة ملفوفة ومربوطة بدوبارة، وفى اليمنى طاقيته ومفتاح، الطريق هو نفس الطريق. ولكن الشاب تغير كثيراً. مر بالحمامات التى يعمل بها. استدارت عيناه، بحثتا عن مكان حقله، لم يستطع تمييزه، اصطدمت رموش العين بخط الأفق البعيد، وللخريف لون رصاصى منطفئ ينتشر فى كل الألوان. يمتص بهجتها وتميزها، هدوء الغسق أقرب إلى النوم، حنين مصطفى إلى الحقل والزرع والترعة يذيب الفؤاد، قبل عودته بالأمس من الحقل شاهد نبات البرسيم، أعواده شقت الأرض، كان لعناق الأخضر والأسمر، شكل راعش. القمح لم ينبت، هجم البرد على الحقل. وان كان وجهه لم تبلله قطرات مطر هذا العام بعد شم رائحة الأرض الشراقى فى انتظار المياه التى تطفىء ظمأها.

نظر خلفه، لم يشاهد لظله الطويل نهاية، وعلى آخر الشوف. لم يكن يبدو من الجسر سوى دوائر الغبار التى كانت تثيرها السيارات فى الذهاب والعودة. اقترب من الجسر، شاهد زملاءه، الكل فى الأنتظار. رفع يده، ظلل بها عينيه، ذكره المنظر الذى يخرج من أشعة الشمس الصفراء الباهتة بسنوات الجندية، فهتف لنفسة فى صوت خافت:

- والله زمان .

اقترب منهم على مهل، على الجسر الجديدى خبط قدميه، نافضاً عنهما التراب العالق بهما من الطريق الترابى الطويل. واصل سيره، رفع صوته:

- السلام عليكم يارجالة.

ترك مابيده على الأرض، ولبس طاقيته. وأقبل على الواقفين.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

تحولوا إلى دائرة، الصدور أيادى متشابكة والأفواة تتحرك بحماس وفرحة، والعيون تدور فى المحاجر بسرعة، الكلمات تبدأ فاترة، ولكنها تشتعل من بعضها، انهم يتكلمون، وللحديث مفردات مختلفة، حضرة الصول، الشاويش الدفعة، أسماء جديدة تطل عليهم. الموضوع . متاعب السفر، آلام الفراق، وتمنى العودة إلى البلد، الجيش وحياة العسكرية، الذهاب الى المعسكرات ليلا، وربما التوجه إلى الميدان، والمرتبات، استعادة النشاط، العودة إلى حياة الضبط والربط والطوابير والمناورات وليالى الخدمة والنوبتجية والسهر حتى الصباح.

خلال الحديث سأل كل منهم الآخر عن طريقه، وانفراط عقد الجماعة، إلى جماعات صغيرة. العيون معلقة على نقطة فى الأفق البعيد، حيث تخرج السيارات القادمة من وسط الأشجار والحقول والتواءات الطريق، الكلمات تقال متباعدة كسولة، مساحات الصمت تطول، الفتور يعلو الوجوه.

انه الأنتظار.

(٣) النار تشتعل ، الماء يغلى ، الغزالى

ونورة، يحاولان الغناء ويشعران بمشاعر غريبة

بدت لحظة الوداع هكذا. مصطفى أمام أمه، الوجه فى الوجه، العين مغموسة فى العين. نورة مبتعدة والغزالى يقترب من أخيه، يبدو ضيئلاً بين الأقدام:

- مصطفى رايح فين ؟

- مسافر.

- فين ؟؟

أمسكته نورة من يديه:

- الجهادية.

وجه الغزالى محاط بطبقة رقيقة من الأشياء التى لا يفهمها. وعند سفر أحد من العائلة لا يكون للغزالى هم سوى أن يطلب السفر معه، لايدرى عن السفر الا أنه ذهاب إلى الجسر وانتظار وركوب سيارة تسابق الريح، تشبث بمصطفى.

- خذنى معاك.

هوت يد عليه أمه، تصميمه على السفر، جعلة لا يشعر بألم الصفعة. مصطفى نظر إليه، قال لأمه. انهما مسافر ان معاً، نظر فى عينى أمه نظرة طويلة، قالت العيون من خلالها ما لم يفهمة

الغزالى. على عتبة الدار جلس مصطفى، وطلب من أمه أن تدخل لتلبس الغزالى ملابس السفر، فالجلباب والقدم الحافى لا يصلحان للبنادر البعيدة. تباطأت أمه، سحبته إلى الداخل، استعجلها، شتمها، هجم عليها، ركلها بقدمة الصغيرة فى بطنها اثناء ارتداء ملابسه، اكمل ارتداء ملابسة، عند حضوره كانت عتبة الدار خالية فهم الغزالى سر النظرة المتأنية التى تبادلها، مصطفى معه أمه. وأدرك أنهما ضحكا عليه. بكى، جرى، نورة أمسكته، حملته على صدرها قالت له، أنه رجل البيت الآن. الوالد يرقد فى المقابر قبلى البلد. الأخ الأكبر ناداه صوت المكن فى كفر الدوار، ومصطفى، آخر الديوك هجر العش اليوم.

فى القاعة القائمة فى قاع الدار. المطعونة بمساحات الظلام، خلع الغزالى ملابس السفر، فى ذهنة الصغير والبسيط كانت آلاف الأشياء المعقدة والمتشابكة، الغير قابلة للفهم تدور حول نفسها. خرج من القاعة. فى وسط الدار. كانت نورة تجلس أمام الكانون، تشعل النار تحت اناء ضخم، جلس بجوارها، فبدت له أجمل بنات العالم كله. اقترب منها، حتى التصق بها، رفع يده وأمسك ذقنها وأدار بصرها ناحيته، ثبت عينيه فى عينها واحتار ماذا يقول، تلعثم وهربت منه الكلمات، ولكنه اهتدى إلى سؤال، كان يود أن يعرف لم ينام الأب قبلى البلد، ومتى يقوم من رقدته؟ ولم يقيم أخوه الكبير، والذى كان يظنة والدهم فى كفر الدوار بمفرده؟ وما السبب فى سفر مصطفى المفاجىء إلى الجهادية؟

آخر الأسئلة كانت:

- وازاى أبقى راجل البيت وأنا . . .

سمعت نوره مقالته كلها. خبت النار داخل الكانون، فمدت يدها برفق. وأنزلت أصابعة الصغيرة، المحيطة بذقنها، استدارت واقتربت من فم الكانون، تحول فمها إلى كرة، جلد الصدغين مشدود على آخره، والفم دائرة صغيرة فى حجم حبة التوت، استمرت تنفخ النار حتى طقطق الحطب واشتعلت النار وكركر الماء من الغليان، ان غطاء الأناء يتراقص فى هدوء ونعومة. وأثناء تحركه، فان كتلاً من البخار الأبيض تخرج، اقتربت نورة من الأناء، رفعت الغطاء. نظرت بداخله، تاهت ملامح وجهها فى ضباب أبيض، أعادته إلى مكانه، فانقطع البخار ومن البخار خرجت له ملامح وجه أخته. على رموش العين تعلقت قطرات الماء. الوجه ازداد احمرارا وحلاوة، قرصها الغزالى فى يدها. فتذكرت ما قاله، هى نفسها لم تكن تعرف. سنوات عمرها ضعف سنوات عمره بالتمام والكمال. لم تذهب الى المدرسة، ولم تخرج إلى الشارع، آخر حدود عالمها، البيت بحجراته أو الحقل بساقيته واشجاره، شاهدت نعش الأب يخرج من بتيهم ذات صباح . فى الحارة رأت صفين من الرجال يجلسون مستندين إلى الحائط فى صمت، الصفان لم تكن لهما نهاية. ومع امتدادهما كان الرجال يتحولون الى نقط صغيرة باهته، رأت، أخاها الأكبر مرة أو مرتين، يقال انه يعيش فى كفر الدوار. له بيت وأولاد. وأنه ينام على

سرير من النحاس الأصفر الأصلى. وأن زوجته من بنات البنادر، بيضاء وسمينة، وعيناها سوداوين مفنجاتين. لاتعرف عمله، يقال سائق أو رئيس عنبر. رحل اليوم آخر رجال البيت، لايدرى السبب. الباقى علمه عند الله. نظرت إلى الغزالى، احتارت ماذا تقول له:

ـ لما تكبر تعرف كل اللى يتسأل عليه.

خبط الغزالى يده على الأرض بجانبة، بنفاد صبر، توقعت أن يسألها، سؤاله القديم. متى يكبر، ومتى يعرف، الحديث عن مصطفى يعود إلى الشفاه:

ـ مصطفى خدوه الجيش؟

ـ ليه ؟

ـ ازاى ؟

ـ الحكومة عايزه كدا.

ـ هو الجيش فين؟

السؤال والجواب كالكرة بينهما، ذكرته بالسنة الماضية، أيام أن كان مصطفى كالضيف، يأتى كل شهر ونصف خمسة أيام فقط، يسافر بعدها، ثم عاد ليعش بينهم، أمس فقط طلبوه:

ـ كلها عشر تيام ويرجع.

على أصابع يدها بدأت تعد الأيام العشرة، حددت يوماً بعينه، سيعود فيه مصطفى، لم يدرك الغزالى كل ما قيل، شعر بخوف غامض، صمت، وبدأ خياله يعبث بالكلمات والصور. مصطفى فى

الجيش، يستقبل حياته الجديدة. سأل لماذا لم يأخذوه هو بدلاً منه؟ قالت أخته: أنه مازال صغيراً، أمامه عشرة أعوام حتى يختم فى المركز تحت الطب، بعدها اجراءات طويلة، قالت له الكثير، كل ما قالته كان تصوراً ساذجاً لحياة المعسكرات. استشهدت فيما قالته بكل ما سمعته من مصطفى بعد عودته من العسكرية، الكلمات تنزلق من لسان نورة، لتسلم الغزالى لمتاهات واسعة. اقترب منها، وضعت يدها على رأسة عبثت أصابعها بشعره، أحس بدفء الأصابع فوق جلد رأسة، فإقترب وطلب منها أن تغنى له. أشارت إلى الكانون ونارة التى هدأت. بدأ يكوم الحطب بيديه، حاول أن ينفخ الهواء، فمه كان صغيرا، أمسك بطرفى جلبابه، حركهما، باعثا بهماالهواء. مع صوت النار وهى تشتعل وطقطقة عيدان الحطب بدأت نوره تغنى وسال صوتها العذب فى أذنية. كأحلى ما فى هذا العالم الكبير. الأغنية كانت كلمات جندى، يطمئن بها قلب الأم قبل السفر.

ـ اياك يا أمه تبكى.
فى الوابور مفرفشين.

ـ اياك يا أمه تبكى.
فى الخيمة متجمعين
وان مت يا أمه ابعتى
ابراهيم وبعده سماعين

أنصت لها. رماد الخوف يدور حول القلب، أعجبه الصوت، تنحنح، شرب قليلاً من الماء. ليسلك زوره، اقترب من أخته، انطلق صوته معها، ركز عينيه على عروق رقبتها المنتفخة، ورفع يده إلى رقبته. عروقة كانت أصغر من أن تشعر بها أصابعة. خرج صوته خجولاً متقطعاً. وبدا له اللهب الخارج من فوهة الكانون، بصيصا من الضوء فى عتمة كبيرة، توقفت نوره عن الغناء فوجد نفسه يغنى بمفرده، شعر بخجل حار كشمس بؤونه، فتوقف وغطى وجهه بيديه، وخبط أخته برأسة فى صدرها. كور يديه وبدأ يضربها، ضحكت، أبعدته برفق، كانت قطره دموع عكرة تجول فى مآقيها. رفعت ذيل جلبابها ومسحت به عينيها. أنها تنفخ النار من جديد. الغزالى يتجه نحو الباب. قرآن ما قبل الأفطار يأتيه من مكبر صوت معلق فوق الجامع القريب. وبين الآيات كان يصله أزيز مكبر الصوت واضحاً. طبلية الأفطار تتوسطهم، الغزالى لا يصوم رمضان. ولكن جلوسه للطعام يسبق الصائمين أنفسهم، لاحظ الثلاثة خلو مكان مصطفى، انتظروا حتي لامس آذانهم صوت المؤذن ينطق بالشهادتين.

لم تمتد الأيادى للطعام. العيون الستة، ارتفعت، نظرت إلى أعلى، إلى دائرة صغيرة تطل عليهم من سماء خريفية صافية عميقة الزرقة.

– روح يا ابنى يفتحتها فى وشك.

ويجعل لك فى خطوه سلامة.

كلمة والثانية وتهدج الصوت. الأحرف تخرج من الفم هشة متآكلة. الوجه غابة من التجاعيد، الأنفعالات التى فشلت الأم فى السيطرة عليها، حفرت أخدوداً عميقاً يمتد من العين إلى الرقبة. وخلاله انزلقت أول قطرة دمع، انحدرت بسرعة، تركت خلفها مجرى لامعاً، بدأ لمعانه وسط رمادية المساء الذى بدأ يهبط عليهم فى ذلك الوقت.

الغزالى يرفع يده نحو السماء، هكذ يفعل الرجال ساعة الدعاء فى المسجد، شفتا نوره تتحركان بشكل لا أرادى، الغزالى يحرك شفتيه، ويفهم الأمر كله على أنه دعاء من أجل مصطفى الذى يتناول افطاره الآن فى مكان لايعرفه. دعاء الأم يتحول الى نغمة حب واشتياق وخوف. يداها تقتربان من الوجه. تلتحم أصابعها بالأخاديد والتجاعد، فيبدو جزء من الوجه، تمسح بهما عليه.

فى صمت تناولوا الأفطار. فى الأيام السابقة. كان مصطفى يشيع جوا خاصاً حول الطبلية، حديثه عن الحقل والمبيدات والمحاصيل والبهائم ووظيفته الجديدة. سرعته فى الأكل. أخبار البلد، حكيات الناس.تذكر الغزالى أن أخته قالت له أنه أصبح رجل البيت. حتى يعود مصطفى، فتوقف عن مضغ لقمة كانت فى فمه، ورفع رأسه. وفعل كما يفعل الرجال فى مجالس الصمت:

– وحدوه.

لم تستمع اذناه. هدير انسانى، اقرب الى التمتمة، يؤكد ان لا اله

الا اللّه. نظرت اليه أمه نظرة مستسلمة واستمرت جلستهم. ككل جلسات الليالى السابقة.الأكل. شرب الشاى، حضور شباب البلد، أصدقاء مصطفى، الكثير منهم لم يكن يعرف سفره. السؤال عن أسباب السفر ووقت العودة. وقبل أن يعطيهم الشاب ظهرة ذاهباً. كان يعرض خدماته ونقوده القليلة ووقته وجهده.

ـ مصطفى أخويا.

صوت رشفات الشاى المتبادل بين فم نوره وأمها يبدو مختلطاً بأصوات رمضانية، تأتى من الدور الأخرى والحارة. الأم تحدث نورة:

ـ بكرة لازم.

الحديث عن أعمال لا بد أن تتم فى الحقل. رى وعزق ورمى بذور ورش كيماوى ونقل سماد. وبعض هذه الأعمال لا يقبل التأجيل يوماً واحداً.

سمعتهم قالت نورة ـ بيتكلموا عن الحرب الليلة.

رمشت عينا الأم، قطعت عودا من الحصيرة التى يجلسون عليها، لكى تنظف به أسنانها، بعد طعام جاف خال من الدسم واللحوم. وسوت العود، وقربته من عينيها، ومددت به يدها إلى فمها.

قالت والعود بين أسنانها:

ـ كله باذنه.

(٤) مسألة السفر فى رمضان، والافطار فى الطريق والعوم فى بحار الكلمات مع الأصدقاء القدامى

فى الموقف، انتظر طويلا، هبت من ناحية الجنوب نسمة هواء باردة، فوضع يديه فى جيبى أفروله، شعر بالغربة لدى ملامسة أصابعة للأفرول، ضحك وتكلم كثيراً. اقترب منه أكثر من رجل كانوا يقفون فى الموقف، البعض على سفر مثله. والبعض يسلى صيامة، الأصيل وقت تطول فيه الظلال حتى تصبح خطوطاً نحيلة ممصوصة، تتعرج على الأرض. وفيه يكبس على الضهرية وسن لذيذ.

اقترب منه أحد تلاميذ المدارس:

ـ أهلاً.

صافحة، ولكن المحارب القديم، يتعامل مع عالمه بصمت جياش زاخر. حضرت السيارة. وقف على رفرفها الأيمن. هبت عليه رياح باردة. فوضع ما معه على سطح السيارة، ومن فوقه كان ينسدل بحر من الزرقة. سارت العربة. الحقول والأشجار والناس تبتعد، خط الأفق البعيد يدور دورة بطيئة مركزها السيارة. فى الغرب قرص الشمس أصبح نحاسى اللون. يبصق نوراً باهتاً، نصفه غطس تحت الأفق، والنصف الآخر يبدو بلونه النحاسى المشع فى التوفيقيه. تكرر الوقوف وضع يديه فى جيبى الأفرول وراح

يتمشى. ركب السيارة من جديد، هذه المرة جلس بداخلها. فى الطريق. أذن المغرب. عرف ذلك من ساعة راكب بجوارة. وأكدته له حوارى قرية مرت عليها السيارة. فبدت خالية مهجورة من الناس. فى كفر الزيات، كان عليه أن يفطر. اتجه إلى مقهى صغير جلس عليه، أخرج طعاماً من ورقة كانت معه، جلس يأكل، امتدت يده إلى الطعام، شعر بنظرات الآخرين كابر تنخزه فى جسمه، فتذكر نعمة الستر والبيت والجدران الأربعة وأمه. كان يأكل بمفرده. المغرب فات وقته. أسرع فى أكله، توقف عن المضغ. قال لنفسه:

ـ دلوقت بيشربوا الدور التالت من الشاى.

بعد تسريحه من الخدمة العسكرية، قالوا له. اذهب إلى البلد. سيصلك خطاب التعيين فى وظيفة حكومية. ثمانية سنوات قضاها تحت السلاح، كما يقول أهل الضهرية. فى البلد، انتظر أسبوعاً، فى كل صباح كان يرسل الغزالى إلى مكتب البريد، يسأل عن خطاب باسم مصطفى.

ـ لا يا ابنى.

تكرر ذهاب الغزالى فسألة وكيل مكتب البوستة:

ـ ايه الحكاية ياولد؟

تشعلق الطفل بالمكتب، حتى شاهده الرجل، السؤال ظل معلقاً، فالغزالى لم يستطع الرد. ذهب مصطفى بنفسه إلى المكتب. تذكر وهو سائر. انه ذهب إلى العسكرية لأول مرة. وفى ذقنه شعيرات

متناثرة، لم يجر الموسى عليها. عاد وقد أسود جلد ذقنه من غزارة منابت الشعر فيه. طريقة سيره تؤكد أنه أصبح رجلاً. مصطفى لا يشاهده أحد كثيراً خارج البيت. هكذا حال كل الذين يعودون إلى الضهرية بعد فترة غياب. يلوذون بالدور، خجل ما يمنعهم من الظهور فى الحوارى والشوارع. مصطفى نما جسمه، يكاد يخرج من جلباب قديم يرتديه. فى المكتب. سلم وجلس، تنقلت الكلمات بين الرجلين، فهم مصطفى بعد جهد. ان خطاب التعين، سيرسل إلى مكتب التجنيد فى المركز، وتردد على ايتاى البارود عشرة أيام. فى كل مره كان يسأل عن خطاب التيعين. وهناك كانت أذناه تسمعان رداً قديماً من فم رجل عجوز.

ـ فوت بكره.

بين السؤال والجواب. أخذ وعطاه، ثرثره عابرة، الموضوع واحد، الوظيفة التى سيحصل عليها من الجيش، اكد له الرجل صعوبه الحصول على وظيفة.

ـ معاك شهادة ؟

ـ لأ.

ـ قبل الجيش كنت.

ـ مزارع.

ـ فهمت.

أفهمه الرجل. ستعطيه الحكومة أرضاً.

ـ تأجير واللا تمليك.

تاه رد الرجل وسط ضوضاء أصوات كثيرة. الأيام أكدت عكس هذا. ذات مساء. حضر خفير نبه عليه بضرورة الذهاب إلى المركز، ومن نفس الرجل العجوز تسلم خطاب التعيين.

ـ خفير على الحمامات العمومية، ومرافقها بالضهرية

كفر الزيات، طنطا، بنها لم تكن آخر المطاف، الطريق لايزال طويلاً. فى محطة بنها، قابل زملاء الأيام القديمة، صافحهم، اكتشف أن يده خشنة ومشققة، مغطاة بطبقة من القشر الجاف، مثل أرض شراقى تطلب الماء من فترة طويلة. رمى نفسه فى أحضانهم، شلال الكلمات يكون جسوراً من الألفة والمودة.

ـ وحشتونى..

ـ أنت أكثر

الكلمات اللاهثة عن الحال بعد التسريح من الخدمة، السؤال الملح عن أمرين، الوظيفة والزواج. مصطفى يعد رب أسرة، شقيقة الذى سافر إلى كفر الدوار. لا يحسب، زواج مصطفى مؤجل، حتى الآن. لم تدخل البيت عروس، هذا الأمر يحزن أمه.

ذكريات السنوات الماضية تعود، عقد الحكايات القديمة ينفرط. كحبل مسبحة طويلة، بطول العمر نفسه، الضحكات والبسمات ترقص على الشفاه. الكلمات ترسم مواقف حدثت لهم، لم ينسها واحد منهم. سألوا عن موعد القطار الذاهب إلى الجبهه، اكتشفوا انه

تفصلهم عنه ساعات ثلاث طوال، اقترح أحدهم أن يتمشوا فى شوارع بنها تضييعاً للوقت، الجو معطر بذكريات وحكايا جميلة. مصطفى يسير معهم. رأى امرأة تجلس على أحد الأرصفة، فتذكر أمه. تعجب من أمره. كم تبدو أمه نائية عنه.

سأل أحدهم:

ـ انما ايه أخبار الاستدعاء.

رد واحد.

ـ اختبار كفاءة.

ـ ايه.

ـ كفاءة نظام التعبئة الجديد.

فى وسطهم شاب متعلم، مد أصبعة، أراح بها نظارته على منخاريه:

ـ لا دى مناورة، حاتبدأ الساعة ٦٠٠ الصبح لغاية يوم الخميس.

ـ يعنى بعد بكره.

ـ تمام.. التسريح يوم الجمعة

أكمل واحد منهم:

ـ علشان نروح مصالحنا الحكومية السبت صباحاً

حاول أحدهم أن يضحك:

ـ دى اللى دخلت مخك.

فى القطار الحربى عثر مصطفى على مكان خال بجوار النافذة،

جلس، تحرك القطار، أسند خده على يده، انزلقت نسمات هواء باردة على وجهه، أغمض عينيه، شعر برغبة فى النوم، صوت اصطدام عجلات القطار مع القضبان انتظم فى أذنه. الظلام مستتب أمام العيون. من خلال العتمة، حاول أن يرى أعمدة التليفونات، ولكن الظلام كان شاملاً. فى داخل العربة، كتلة الأصوات. الكل يتكلم. الأذن لا تستطيع أن تلتقط حرفاً واحداً مما يقال. مع شلال الكلمات، رائحة دخان وأطعمة وملابس جديدة وعرق رجال، وسط عناق الضجيج مع صوت القطار. ارتفعت يد نقرت على خشب المقاعد. الدقات تبدأ رتيبة، غير منتظمة خافتة، يحاول البعض أن يستمع. الدقات تعلو،، يخرج من الضجيج وصوت القطار لحن، يغنية أحد المسافرين، الكلمات عن مصر. يبدو أنه يرتجلها، تبدأ كلمات الأغنية مع خريطة مصر. من الشمال. بلاد الأيام الباردة وسيول المطر.

يا الاسكندرية... ياه

والمرسى أبو العباس. . ياه.

والحضرة . . ياه.

والمندرة . . ياه

الهبوط جنوباً، عكس اتجاه النيل، الطواف بكل ماتراه العين، الأيادى تصفق مع الدقات، الحناجر تغنى معه. يبدأ الصوت هادئاً من الكل. ومع كل كلمة جديدة يرتفع الصوت. الأغنية كلماتها

خشنة، غير منسقة ولكنها تتحول ببطء إلى وسادة ناعمة من الحرير يرتاح فوقها المغنى كى يمسح عرقة. حال الظلام دون رؤيته، صاح أحدهم:

ـ غن علشان نشوفك.

الغناء من جديد، الأغنية تحكى عن جندى، ودع أمه الفلاحة. ركب الحصان الأخضر، ونزل إلى الميدان كان وحيد أمه. أبوه مات منذ سنوات. قدما الأم لم تعرفا أى مكان سوى بيتها. الجندى يحكى لأمه ماشاهده فى السفر والترحال فى بر مصر. يقول انه لولا العسكرية، ماصعد مع النيل الى الشلالات ولا هبط معه حتى نساء الشمال اللينه الجميلة. تصف الأغنية أرضاً خضراء وصحارى جاثية وسط انهار الخضرة، وتنبعث من الكلمات عيون مفنجلة، ترك الابن عندها قلبه وديعة، دون أن يحصل على ايصال يسترده به. كان يحدو وهم يردون وراءه، وعندما كان يتوقف، فإن النكات تنطلق، عن أهل مصر. قالوا مائة نورى ولا واحد دمنهورى. وقف أحدهم وصاح فى الظلام. سألهم: ان كانوا يعرفون كيفية أكرام الضيف، من طعام وتسلية ونوم. وهو وحماره بقرش صاغ واحد. اعترض صوت بأن ذلك كان فى زمان الرخاء القديم. أضاف آخر. بأن هذا يحدث فى دمياط فقط. تحولوا إلى مجموعات صغيرة. التعرف بالصوت واللمس وشم الرائحة وسط الظلام، وأبطا القطار من سيره، وقف، أطل أكثر من واحد من النوافذ، غمس وجه الظلام

وعاد ليقول ان القطار أمامه تصليح فى الطريق. ولكنهم عندما توقف القطار تماماً. سمعوا صوت فرملة عجلاته على القضبان، واهتزوا جميعاً، وتكوموا فوق بعضهم، أدركوا أنها نهاية الخط.

وقفوا على الرمال. أضواء بطاريات حمراء اللون تشير إلى الطريق والوحدات. لسان من الضوء الأحمر يعبر الوجوه بسرعة. وخلال المرور لا يبدو من الوجه غير عين أو أنف أو فم. ويعبره الضوء. حاول مصطفى أن يعثر على زملائه القدامى. ولكنه اكتشف ان الأشهر العشرة أذابت ملامحهم الخاصة. سألوا أحد افراد الشرطة بكلمات قليلة، أحيا فى أذهانهم طريقاً سبق أن قطعوه فى النهار الصحو والليالى المثقلة بمكعبات الظلام. ساروا. بدت الجبال مساحات من العتمة. هبت ريح خريفية شموا فيها رائحة الشتاء المقبل. حملت معها ذرات من الرمال: فأحس بها مصطفى فوق خده الناعم.

كان مصطفى سعيداً.

أحس بدفء لذيذ حول القلب، وبرغبة أن يحكى وينصت له الكل. ارتعش لسانه، غاص فى بئر فمه، لم يقدر على حمل شلال العواطف الراعشة بداخله، عجب مصطفى، بحث عن بداية يومه فى ذهنه فوجدها بعيدة، لم يجد بداخلة أثر رهبة أو خوف، كاد أن يقول لزميله أنه سعيد وان كان لا يعرف لم.

لهم زميل طويل اللسان. لا ينجوا أحد من كلماته، وله قدره

فريدة على التقليد، توقف. أجبرهم جميعاً على الوقوف، بدأ يتحدث.

ـ أول ماتوصل المعسكر دلوقت.

الصمت مؤكد. فهم يسمعون تردد أنفاسهم.

ـ الشاويش عبد الله يقف.

يقلد حركاته وكلماته. ينتقل إلى النقيب فتحى أركان حرب المعسكر، قائد السرية. القائد. وهو فى تقليده، ينتقل من الصوت إلى الحركة. انهم يشكلون دائرة حوله، يقتربون منه. يضيقون من عيونهم، لكى يشاهدوه، رغم الظلام.

الليل يخر عن آخره الآن. وقمر العشرة أيام الأولى من رمضان يرتفع سابحاً فوق صفحة السماء. وبجواره نجمة أو نجمتان، ظهرت أجزاء منهما، مصطفى وزملاءؤه يسيرون، وأثناء السير يتوقفون، ويجلسون. الحديث يتشعب كحارات قرية مصطفى. وحملت نسمة هواء ليلية رطبة، الضحكات وكلمات الرجال يسيرون ببطء.

انطفأت الكلمات، وأتى الصمت سريعاً. وأطل كل منهم داخل نفسه، نشط مصطفى، بدأ يستعيد صوراً شاهدها فى سفره الطويل. كانت أشياء بسيطة وعادية. وجه فتاه صغيرة. فيه كل جمال العالم، لوح له من بعيد، من وسط اطار نافذة مفتوحة. والقطار يجرى به. أم تجلس على مقعد فى محطة قويسنا، يبدو أنها تنتظر القطار الذاهب إلى الأسكندرية. تضع طفلها على صدرها.

الطفل مستكن لحلمة الثدى بين شفتيه. فزع الطفل من صوت القطار. فأغمض عينيه. الهواء المشبع برائحة الخضرة والماء والأرض المروية حديثاً، يحمل له كلمات وداع المسافرين، على المحطات فى اللحظات الأخيرة وجه فتاة ناضجة. يبدو فتحة من النور فوق المقعد المواجه له. ركبت من طنطا ونزل هو وتركها فى بنها.

ان هدوءا يترقرق فى صدر مصطفى، يبدو ممتزجاً بدفء إنسانى فرح.

اكتشف أنه تأخر عن زملائه. فأسرع فى سيرة كى يلحق بهم.

(٥) القلب يدمع قبل العين أحياناً ، أحاديث ومشاعر أصدقاء الغزالى ليلاً . .

الليل، الليل الشامل، المساء يصعد إلى السماء. تشعر به واضحاً، ولكنك لا تستطيع أن تراه أبداً. يأتى الأصيل الرمضانى المستطيل الوجه. أخيرا يؤذن المغرب، يجرى الغزالى إلى البيت. ويكون ضوء النهار كما هو. يمنح المرئيات وجوداً منفرداً. لايبقى الغزالى فى البيت سوى وقت الافطار. يشرب الدور الأول من الشاى، آخر شفطة من الشاى تصل إلى فمه وهو واقف. يشاهد من خلف زجاج الموب المغبش ببقايا الشاى، مصطفى حبيب الفؤاد. وأمه ونوره، يضع الكوب، يجرى. فيصطدم بالطبلية.

هذا المساء. شعر بحرج. سمع صوت الأطفال وهم يلعبون فى الحارة. نداءات يطلقها زملاؤه. يعرفها الغزالى جيداً. مال على نوره، اقترب منها، وضع فمه على أذنها. قال لها. انه يريد أن يذهب لزملائه. لم ترد عليه بنفس الهمس. أشارت ناحية الحارة، انكمش داخل جلده عندما سمع صوتها عالياً.

- الباب يعدى جمل.

تحرك بهدوء، متحاشياً نظرات أمه. على عتبه الباب وضع ذيل

جلبابه بين أسنانه، وانطلق يجرى، سمع صفارة وتصفيق يد، فرد عليهما بالمثل.

ليل رمضانى. موشى بأفراح جدباء بجوار ما يرويه الآباء والاجداد. عن رمضان الزمان القديم. فى الباحة التقى بالأطفال. بدا الغزالى سعيداً ومهموماً فى وقت واحد، على لسانه تزدحم الكلمات وفى الذهن صور وعوالم ضبابية. آن الأوان له. أن يتكلم. فى الأيام السابقة، كان يستمع لكل مايقال، اليوم. تغير الحال. سافر مصطفى إلى الميدان وان كان سفره عادياً. لقد سمع الغزالى من قبل. كثيراً من الحكايات عن السفر. لحظة الوداع. السيارات الغريبة على نوافذها ستائر مسدلة، الدموع تجرى والقلوب تخفق والأيادى تتعانق، معبرة عن حنين غامض. المشهد الذى رآه الغزالى فى بيتهم وقت العصارى كان صامتاً. الكلمات قيلت بسرعة، لم يفهمها. اندس بين الأقدام وأطل بوجهه خارج البيت. الحارة كانت خالية. لا سيارة ولا مودعون ولا أبواب مفتوحة ولا حقائب كبيرة مربوطة من يدها بأوراق مكتوب عليها كتابات بلغات أجنبية.

اتجه الأطفال إلى مصطبة صغيرة مهجورة، جلسوا، لم يستطع الغزالى أن يقاوم رغبة فى الكلام. مصطفى اندفع قائلاً ـ راح الحرب.

صوته كان رفيعاً كورقة السيجارة، خفوته لم يناسب معانى الكلمات. نظروا إليه، بدا فى جلسته أصغر كثيراً مما يقال. كان يرتدى جلبابا مقلماً بالأزرق والأخضر والأحمر. على الرأس طاقية

من القماش نفسه، الفارق الوحيد أن خطوط الجلباب بالطول. تبدأ من صدره هابطة نحو الأرض. الطاقية خطوطها دائراية. تلتف حول الرأس بالعرض. الغزالى دقيق الأطراف، ضئيل الحجم. كانوا يسمونه الولد بليه لولا تدخل أمه فى الأمر خوفاً من أن يلتصق به ذلك.

أكبرهم سنا ولد اسمه بدر، يعرف مالا يعرفه أحد، يشرح لهم كل أمور الحياة الصعبة والمعقدة، وهى كثيرة. بدر فى السنة المدرسية السادسة. تعدى العاشرة بسنتين ويفصل بينه وبين الغزالى، أربع سنوات من العمر.

كان أول المتحدثين :

ـ لا ياعبيط.

صاح الغزالى:

ـ دا خويا وأنا اللى موصله.

ـ مصطفى راح العسكرية، مش الحرب.

غمس واحد نفسه بينهم.

ـ العسكرية هيه الحب.

أشار لهم بدر أن يسكتوا.

ـ تفرق كثير خالص.

أصبح صوت بدر أكثر هدوءاً. انه يجرب فيهم كل مفاهيمه ومعلوماته عن الحرب والقتال. والد بدر مأذون البلد، يذهب كل

صباح إلى ايتاى البارود، وعند عودته وقت الأصيل. يشاهد الأطفال تحت ابطه جريدة مطبقة. وعليها آثار عرق يده. وبقع ونقط حبر. يؤكد لهم بدر كل مساء. انه يقرأ الجريدة فى الليل. يفليها.

ـ هكذا يؤكد لهم من طقطق لسلامو عليكو.

ـ الحرب ياجماعة.

يقول لهم بدر. أن آخر حرب. مرت بنا، كانت من ست سنوات. أغلبهم لم يكن قد ولد يومها. بدر كان فى السنة الأولى. بمدرسة عسران عبد الكريم. ويومها تعطلت المدارس. وكانت ضد

ـ أسرائيل.

ردد أكثر من صوت الاسم. توقف بدر، لامست عيناه وجوهم، فرداً فرداً.

ـ طبعاً ولاحد فيكم درس الجغرافيا.

حركوا رؤوسهم فى حيرة. قال لهم، انه كان يود أن يعرفهم مكان فلسطين التى تحاول اسرائيل اغتصابها. فلقد درسها فى السنة الماضية. ولكن لا توجد خريطة.

ـ بكرة تكبروا وتعرفوا.

الغيظ يأكل قلب الغزالى، ضاعت الفرصه. وها هو بدر يتكلم بدون توقف. قاطعه صوت:

ـ هوه فيه بعد بلادنا بلاد.

ـ يتقول ايه ؟

استراح بدر فى جلسته، رده كان على شكل حديث عن مصر والعالم المحيط بها. بدر ينطق الكلمات بسرعة كما قيلت له فى المدرسة تقريباً. صوته يكتسب فى آذان المحيطين به معانى أخرى. تسلمهم إلى حيرات جديدة.

سأله الغزالى :

ـ ومصطفى خدوه ليه؟

السؤال كان مفاجئاً :

ـ شوف ياسيدى.

بعدها لم ينطق بدر ولا كلمة واحدة. تعلثم وأخذ يكرر الكلمتين اكثر من مرة. حاشراً بينهما كلمات مثل. أصل، انما، يعنى. .

أكمل الغزالى :

ـ مصطفى ضابط كبير ورئيس الجيش كله.

انتفض بدر :

ـ كله إلا دى.

ـ والله مصطفى ضابط كبير.

ـ ايه ؟

ـ سترته القديمة فى البيت. متعلقة على الحمالة. وفيها شريطين سمر. أمى قالت دى علامة الضباط.

صوت بدر يعلو :

ـ مصطفى أو مباشى.

رفع بدر يده. مشيراً باصبعين منها. ليدل على عدد الشرائط ونوع الرتبة. احتار الغزالى. ولكنه قال :

ـ من فيكم له أخ فى الحرب :

صحح بدر :

ـ العسكرية مش الحرب.

ـ الحرب.

ـ العسكرية.

مد بدر يده. فأجلس الغزالى. شعر الغزالى بالارتباك العيون ترشه بنظرات لم يفهم معناها. رفع يده. وكبس بها الطاقية فوق رأسة، التى بدت ملامحها واضحة. الرأس مستطيلة وليست دائرية. وكثيراً ما أضحكت زملاءه منه. الكبار يقولون ان السبب فى ذلك. ان الداية سحبته من رأسة وليس من قدميه. فاستطال شكله.

ـ الحرب لو.

بدر يكمل حديثه: لو قامت الحرب، بلدنا هى أول البلاد التى ستعرف. طبعاً لا تعرفون السبب. سأقوله لكم. فى البلدة، القريبة الموجودة فى البر الشرقى لبحر النيل. يوجد مطار كبير فيه طائرات ومدافع وعساكر وجيش بأكملة. ما ان تقوم الحرب. حتى تنطلق الطائرات، تعبر سماء البلد وهى ذاهبة تضرب اسرائيل. وفى هذه الحالة. من الواجب عليهم أن يصعدوا فوق بيوتهم لكى يحيوها وهى فى طريق العودة وقد تصل إلى الآذان، أصوات احتكاك

عجلاتها بأرض المطار عند الهبوط فيه. وقد يضرب المطار، فتهز أصوات الانفجارات البيوت وربما تسببت فى تصدع المبانى وانهيار القديم منها.

ـ انتم لسه صغار. فى الحرب اللى فاتت.

الأطفال يشربون كلماته. يغمسون آذانهم فى حروفها وهو يحكى. شاهد أهل البلد مرة جسماً صغيراً. يندفع نحو الأرض، راسماً خطاً فى الأفق على شكل نصف دائرة من الدخان الأسود، يبدأ الخط فى الاتساع، ليتحول إلى مساحة واسعة من الدخان. الكل خمن، والكل تحدث. والكل قال. دا صاروخ. قنبلة، طيارة، وقعت الطائرة شرقى البلد اعتقد الناس أنها سقطت فى النيل. بعد أن جروا نحوها. اكتشفوا ان البصر خداع. انها نائمة فوق الشط الشرقى من يومها والكل يعرف حكاية المطار الكبير المقام وسط الحقول.

انطفأت الكلمات على ألسنتهم، الصمت غريب على عالمهم. بدءوا حديثاً عن رمضان. ولكنه لم يستمر كثيراً، قال واحد :

ـ نتقابل فى السحور قدام أبو نشابة.

الوقت متأخر. عرفوا ذلك من الشوارع والحارات التى أصبحت خالية من الناس. وأبواب الدكاكين التى لا يقف عليها أحد. الشوارع مضاءة. أول رمضان يأتى بعد النور. تفرقوا، فى الطريق يشعر الغزالى بحنين حار لمصطفى. فى الأماسى كان مصطفى يمر عليه. ويأخذه. يعطيه يده اليمنى. فتشتبك اليدان. يبطئ مصطفى من

سيره. فى صمت كانا يقطعان الطريق إلى المنزل. الغزالى يسير بمفرده. طوح يديه. فبدأ خياله أمامه مضحكاً. شبكهما خلف ظهره، أبطأ سيره. نزل إلى قاع الشارع وسار فيه. باب بيتهم كان مفتوحا. تطل من داخله ظلال الأشياء. على لسان الضوء المنبعث من اللمبة الصفيح. أتت الكهرباء ،لكنها خاصمت منزلهم، العين بصيره واليد قصيرة. كانت أمه جالسه مع أخته. بدأ فى وقفته على العتبه، ضيئلاً. خبطت أمه على صدرها. بهتت أخته. ظل واقفاً فى مكانه، طفحت عينا أمه نوراً ولمعاناً :

- الخالق الناطق مصطفى فى وقفته.

جرى الغزالى إلى أمه. رمى نفسه فى حضنها، الذى كان دافئا وليناً فى الزمان القديم. مدت يدها. رفعت بها وجهه إليها. شعرت أن مصطفى ينظر اليها من خلال عينى الغزالى. ينبض القلب نبضة واهنة. العين حفرة بلا رموش جف منها ماء الحياة. ولم تعد تسعفها بقطرات الدمع الدافئة، من قبل كان المرحوم والدهم يشربها بنظراته من خلال عينى مصطفى. الآن يلمس مصطفى قلبها المنعب من تحت رموش الغزالى. وضعت رأسة على صدرها. نوره تخفى ارتباكها تحاول أن تبدو مشغولة. رفع الغزالى رأسة، نظر نحو أمه :

- مصطفى جاى أمتى؟

عدت على أصابعها:

- بعد تسع تيام.

- على فكرة. دا ماراحشى الحرب.
- من اللى قال لك . .
- الناس كلهم، أصل الحرب غير العسكرية

حملته بيدها، أجلسته على الأرض وقامت، بلع كلماته وحبسها فى صدره. أغضبه أنها لم تستمع لكل ما قاله. اقتربت نوره منه. كان يطل من داخل طفولتها العابثة أنثى. توجد أشياء كثيرة لا يفهمها الغزالى. اقترب منها، أمسك بيدها، ودخلا المندرة. على الحصيرة المتاكلة، تربعت. وضع رأسة على فخذها. وبدأ يحكى. قبل الحديث. أكد لها أن ما سيقوله سمعه الليلة من أكابر البلد. ابتسمت قبل أن تسأله. وكيف جلس معهم. رفض الاجابة على سؤالها، وعندما قال لها ان الحديث كله كان عن مصطفى، ارتخت رموش العين المشرعة. وتحولت خطوط الغبار المستقيمة على الوجه الجميل. إلى انصاف دوائر تهتز مع الكلمات.

الغزالى يحكى. ونوره تجوس بيدها على جسمه الصغير. صوته يرتفع. ويستخدم يده فى الحديث كثيراً. ترتفع رأسه أحياناً، يقرب فمه من أذنها، ليقول لها سراً ما.

فى منتصف حكايته. غلبه النوم. توقفت الكلمات على لسانه. اغمض عينه. فى وسط الدار. كانت أمهم تنزل الحطب وتحضر العجين وتفرش الأجوله القديمة على الأرض ارتفع صوتها ينادى نوره. رفعت نوره رأس الغزالى، شدت ملابس قديمة من فوق

الحمالة، كورتها ووضعتها تحت رأسه، أغلقت باب الدار. ووضعت اللمبة فوق رأسها، واتجهت داخل البيت. اقتربت من أمها. كانت تطل من فوهة الفرن ألسنة لهب تتراقص. ومن الخارج كان يأتى صوت يتلو آيات القرآن. وصل الصوت. ولكن نسمات الخريف هبت فبعثرت بقية الآيات.

(٦) تبث أن دعاء الأم حجاب .. فصل فيما جرى لمصطفى بعد وصوله إلى المعسكر بالسلامة.

خطر، منطقة مناورات، ممنوع الدخول، أبرز تحقيق شخصيتك ممنوع التصوير، منطقة عسكرية. احذر، حقل ألغام. قف للتفتيش المناطق المحاطة بالأسلاك الشائكة، دوريات الشرطة العسكرية قاعات الطعام الواسعة. خيام السكنى، مكاتب الاستعلامات سيارات الامداد بالماء والوقود.

فى البداية، فوجئت العين التى ألفت الظلام. بنور بطارية يسلط عليها. رفع يده اليسرى، غطى بها العين وباليد اليمنى أخرج أوراقه. أمر الاستدعاء. كعب استمارة السفر، بطاقة شخصية. كشف مهمات.

- اتفضل يا دفعة.

بعد نزولهم من القطار الحربى، ساروا على الأقدام، فى الزمان القديم، كانت تنتظرهم سيارات. خلال السير تصبح ذكرى الأيام البعيدة وسادة يستريح فوقها القلب. العين نصف مغمضة، والقدم تضرب على الرمال بهدوء. أمامه مساحة واسعة من الظلام. المسافة طويلة. لابد من الوصول. الخيام والجبال، والمنشآت العسكرية حولهم، أشكال مبهمة. تبدو فى الليل، أشباح غير محددة الملامح، السجائر تدور مع الأيدى، راسمة نصف دائرة. تحدثوا عن المبيت فى

المعسكر، طابور التعيين وقت السحور فى الليالى الشتوية الباردة. نوبتجيات الخدمة.

أول الأصوات. كانت خافتة :

- بكرة اليوم الأول.

أكمل آخر :

- كلها ثلاث تيام.

نظر كل واحد منهم لجاره. فى الظلام يبدو لمعان العيون واضحاً. ارتفعت الأيادى تربت على الظهور . واقترب شاب آخر. وخدش الصمت صوت يقول:

- والله زمان.

بعد ثمانى سنوات سرحت من الخدمة. من عشرة أشهر. وصل الأمر. إلى الوحدة ذات مساء، بسيطاً وسهلاً وواضحاً. كان الأمر كلمه تقول «تقرر تسريح المحاربين القدماء من الخدمة». أحسست بالغضب من كلمة القدماء. سنوات عمرى لم تتعد الثامنه والعشرين. ورغم هذا، أنبتت كلمة القدماء، احساساً بالكهولة والعجز قبل الأوان. لحظة تسريحى من الخدمة. فتشت بداخلى عن احساس ما. فرح، دهشة، كان بالداخل هدوء وراحة لاطعم لهما. فى الأيام الأخيرة من سنه ١٩٦٥ سافرت إلى الإسكندرية. بعد رحلة طويلة عدت إلى بلدتى. الاسم والرسم والبيانات والملامح هى نفسها. الدم واللحم والأعصاب ونظرات العيون تغيرت كثيراً.

وصلنا إلى الوحدة، الظلام ستارة تحول دون الرؤية على البوابة، جندى حراسة فى يده سيجارة ارتفع ضؤوها، فأدركنا أن يده تقترب بها من فمه، أصبحنا أمامه. سحب نفساً طويلاً، فانبثقت كرة من الضوء الأحمر الخافت، تعرت تحتها الوجوه والعيون والملامح فعرفنا بعضنا، هوت السيجارة بجانبة، فتاهت الملامح مرة أخرى. سلمنا وأبرزنا أوراقنا ومهماتنا. وتناثرت فى الجو كلمات، جعلته معطراً برائحة انسانية رغم وحشة المكان، قمنا بجملة اجراءات. مكاتب التسجيل، معسكر الاستقبال، الاسم والعنوان، أقرب الأقارب وزعوا علينا استمارات بيضاء، نظرنا فيها، حاولنا قراءتها قيل لنا، المطلوب أن يدون كل منا اسم من تصرف له كافة المستحقات المالية فى حالة الاستشهاد ومكتب البريد، أو البنك الذى تحول عليه المرتبات أثناء العمليات ضحك واحد منا:

- قال الاستشهاد قال.

سبق أن دونا نفس البيانات من قبل. فى النهارات وخلال الليالى ووقت الغروب. وكتبناها على مكاتب، أو سندنا الورق على الحيطان، أو فوق أرجلنا. فى هذه المرة ران علينا صمت ونحن نكتب. لم يكن هناك سوى همهمة من يحدثون أنفسهم بأحرف من كلمات. وأجزاء من جمل لا يفهمها سوى صاحبها وحده دون سواه. أحسست بالضهرية وأمى، رأيت الغزالى واضحاً. نظر إلى بعينيه الرائعتين من خلال أسطر الاستمارة. النظرة كانت طويلة. أحببته لحد

العشق. مددت يدى لأكتب بقلم كوبيا بللته بفمى اسمها. فى خانة درجة القرابة دونت أمى، شطبتها وكتبت الكلمة التى يحبها الغزالى: والدتى. ارتجف بداخلى شغف رقراق وأنا أدون بوستة الضهرية التابعة لمكتب بريد التوفيقية، محافظة البحيرة.

الكل يكتب، يحول ما بداخله، إلى خطوط متعرجة، أو دعوا فيها، ذوب قلوبهم، نظرت فى الورقة كان الخط مائلاً متعرجاً. واضحاً فى أماكن، باهتاً فى أخرى، استغرقت فى النظر إليه. بدت خطوطه كقنوات حقلنا والجسر المحيط به. رحت أسير بأصابعى على الخطوط، ها هو حقلى، أرض الجيران، الساقية، الترعة، مساحة البرسيم، الأرض السوداء التى بذرت فيها القمح قبل استدعائى بثلاث أيام. سلمت الورقة. وخرجت إلى عنبر آخر.

الليل يتقدم ولكن لا يزال أمامنا عمل كثير.

- فرش متاع.

حملت إلى الكلمة رائحة الأيام السابقة. فتحت مخلتى ووضعت مهماتى على الأرض، الصف يبدو طويلاً، والضابط يتوقف كثيرا أمام كل فرد ليراجع مهماته، فى اللحظة الأولى أخذنا الأمر بجدية بعد قليل أصبحنا جنوداً قدامى بالفعل. بدأ كل منا يسأل الواقف بجواره أن يسلفه الناقص من مهماته. حتى يمر دوره فى التفتيش، ثم يردها إليه. تنبه الضابط للمسألة. كشفت أمرنا غمزات العيون والبسمات والضحكات. أمسك بزميل يحادث آخر بالاشارة يطلب

منه ملعقة، لم يكن من السهل النطق بالطلب ولذا حرك يديه ممثلاً له تناول الطعام بالملعقة لكى يفهم طلبه. وبنفس الطريقة تصرف معنا الضابط. بدأ التفتيش من أول الصف. الضابط أمامى رغم وقوفى فى ذيل الصف. سؤاله الأول كان عن القرص المعدنى. كان معى. أخذه، قرأ بياناته بصوت مسموع، الاسم، الرقم العسكرى. تاريخ التجنيد، تاريخ الميلاد. فصيلة الدم. كنت أرد بعد كل بيان، مؤكداً صحتة. أعطاه لى، لففته فى يدى، ومددتها لجيبى، نهرنى بصوت عال، وبلهجة جافة:

- القرص يوضع هنا.

اقترب منى، أمسك به. حول السلسة المعلق فيها، إلى دائرة صغيرة فى يديه رفعهما، وضع السلسة حول رأسى. وتركها تهبط وتلتف حول رقبتى، أحسست أن الجو بارد، عندما انزلق القرص فوق صدرى. تحت ملابسى الداخلية. مستريحاً فى مكانه، بين شعيرات صدرى الغزيرة.

- القرص لا يخلع مهما كانت الأسباب. لو استشهدت هوه الدليل الوحيد لمعرفة شخصيتك.

وجه الضابط قريب من عينى، ارتعش شىء ما فى حدقتى عينيه، وهو يستدير رفعت يدى:

- حاضر يا أفندم.

ذهبنا إلى المخزن، استكملنا الناقص من مهماتنا. وأتى منتصف

الليل سريعاً. أعطونى بطانيتين وزمزمية، وخوزة وجربنديه، وغياراً داخليا، وأفرولا جديدا، ورباطاً ميدانيا معه بعض الاسعافات الأولية. وقفنا للتتميم علينا. صمتنا، كان كل منا يلتقى بذلك الحضور المفعم بداخله الذى لا تعبر عنه الكلمات، تصلنى بعض الاصوات خاليه من حماس أول الليل. كنا نقف فى أرض الطابور. الضابط ينادى ومن يسمع اسمه يرد عليه. يحمل مهماته بعد أن يعرف فصيلته وحكمداره، يتحرك نحو الخيام، يتحدد وجوده عندما يغرق فى بحار الأضواء الخافته يبدو ظله مستطيلاً، يسير ببطء وراءه. يخرج من العتمة بالتدريج. القدمان فى حذاء عسكرى لم تألفاه بعد. أفرول واسع تتوه بداخله ملامح الجسم، يداه ترتفعان كى تسندا مخلة مهماته التى يضعها فوق كتفه، الرأس والطاقية تاهت بجوار المخلة. الخيمة المخصصة له. يعرفها. ولهذ! فهو يسير بلا دليل.

الضابط مازال ينادى. طال الوقوف فأمرنا بالجلوس، الصف يتناقص والأصوات التى ترد عليه، تختلف من فرد لآخر. الجالس بجوارى زحرح مخلته على الأرض، مقترباً منى، فشممت رائحة الرمل والتراب. لامست مخلته مخلتى، أصبح بجوارى. مد قدمه، خبط بها قدمى تصورت أن ذلك غير مقصود كنت أتابع الأسماء، منتظراً سماع أسمى.مد جارى يده. لكزنى بها. نظرتى إليه كانت مزيجاً من الغضب الهادىء وحب الاستطلاع. اقترب منى أكثر، همس لى:

- دى الحكاية.

لم تصلنى جملته كلها.

- بتقول إيه؟

اقترب هذه المرة أكثر، كادت شفتاه أن تلامسا أذنى. عندما نطق كلماته الأربع أحسست بدفء أنفاسه ورطوبه بخار فمه واضحة على جلد أذنى:

- دى الحكاية باين عليها جد.

لم أرد عليه. اقترب أكثر، صنع من يديه بوقاً وصلنى همسه.

- الاستدعاء مختلف عن المرة السابقة.

وضع يده على كتفى، وأدار وجهى ناحيته فعرفنى :

- مصطفى ؟

- نعم.

- مالك ؟

قبل أن أفتح فمى لكى أرد عليه، سمعت اسمى مسبوقاً برتبتى :

- أفندم.

رأسى تحت المخلة، نظراتى تصافح وجوه الجالسين فى إنتظار دورهم. لمعان العيون يبدو خطاً طويلاً بلا نهاية، رأنى زميل قديم، أمسكنى من قدمى؛ توقفت ونظرت إليه. فقال لى ضاحكاً:

- مبروك عليك خيمة الصف ضباط.

فى الخيمة، وضعت مهماتى، لم أنم، لكل مكان جديد دهشة

وفرحة ورائحة خاصة، ذهبت إلى الفضاء الواسع أمام خيام الادارة. حيث كنا نجلس طول الليل نتكلم. وجدت زملائى، تمكنت من رؤية وجوههم رغم خفوت الضوء. اقترب موعد السحور. النوم ثم الاستيقاظ متعباً، يبدو أن الكل فضل السهر مثلى. الملابس جديدة خشنة، والوجوه متجهمه. الكلمات الخارجة من الأفواه قاسية، كاكية اللون والاحساس والمعنى. تكلموا. الحديث يفتح فى القلوب نبعاً رقراقاً. وملامح الوجوه تسيل ليونة، الكلمات ترق، تنبت بداخلها قلوباً تنبض، تصلها بالآذان أوردة، بداخلها دم حار ملتهب. هبت نسمة هواء باردة. فتمدد بداخلى حنين للبيت وللنوم فوق مراتب وتحت أغطية ثقيلة.

كان الضابط قد انتهى من التتميم علينا. عاد إلى خيام الادارة. بين يديه أوراق ودفاتر وسجلات، وجدنا فابتسمت ملامح وجهه:

ـ أهلاً بالزملاء.

وقفنا، غمغمت الأفواه. اقترب منه واحد منا:

ـ كل مرة، كنت بتقول أهلا بالضيوف.

كان قد تعدانا فى سيره، توقف واستدار إلينا:

ـ وهية تفرق؟

ـ كثير.

قال الضابط وهو يتجه ناحية الخيام:

ـ ضيف، لما تحضر يوم، وزميل لو طالت الاقامة.

على باب الخيمة، خبط الضابط حذاءه الضخم مرات، نظر الينا :

ـ أتمنى لكم اقامة سعيدة معانا.

الجلسة الآن على شكل دائرة. اقتربنا من بعضنا دارت فى المحاجر حبات عيون أذبلتها الرغبة المؤجلة فى النوم. مر علينا جندى قديم، نادينا عليه. اقترب منا، فشممنا رائحة النوم فى ملامحه، عرفنا، فتحول إلى ذراعين مفتوحتين لنا، سألناه:

ـ ايه الحكاية؟

ـ حكاية أيه؟

قاطعنا:

ـ لا . .

جلس بيننا على الرمل. كانت فى يده قروانة وكوب بلاستيك. ويطل من جيب أفروله نصف رغيف، وضعهم بجواره:

ـ عايزين نفهم.

استراح الجندى القديم فى جلسته. وبدأ حديثه، أنصتنا. الكلمات خرجت من فمه على شكل أسئلة، لم تكن شرحاً.

ـ دلوقتى احنا امته؟.

عشنا الأيام القديمة:

ـ العشرة الأولى من أكتوبر

أكملت:

ـ والعشرة الأولى من رمضان .

رفع الجندى القديم يده:

ـ واكتوبر بداية فصل إيه؟

جاء الرد على أكثر من لسان:

ـ الخريف.

تمهل فى طرح سؤاله الجديد، دار بعينه علينا فرداً فرداً، تحركت شفتاه ببطء.

ـ نسيتم مناورة الخريف. لازم تشتركوا فيها لأنها أحسن من أى تدريب حتى ولو كان بالذخيره الحيه.

الرؤوس تقترب. الأيادى التى كانت متجهة نحو الأفواه. وبين أصابعها سجائر توقفت فى منتصف المسافة، بدؤوا فى استيعاب ما قاله. أشار الجندى القديم إلى رأسه:

ـ هنا فيه مخ.

لوح نحوهم:

ـ المدنية أكلت العسكرية اللى فيكم.

ضحكنا. وقلت :

ـ دى الحرب المرة دى.

قال الزميل القديم:

ـ على الاقل كانوا الضابط عرفوا.

ظهر على الوجوه اقتناع بحديثة، سألهم.

ـ طيب النهارده ايه؟

ـ أول ساعة من الخميس ٤ أكتوبر. حا أفكر كم مع أول ضوء من يوم السبت الجاى. حاتبتدى المناورة.

من داخل المعسكر، لامس آذانهم صوت البروجى، خرج من صمت الليل خافتاً. غريباً على الآذان. بدأ يعلو رقصت أحرف الكلمات على سفاههم. بدأ بعضهم فى الوقوف. البروجى يعزف نوبة جمع لطابور التعيين. هاهو وقت السحور. قاموا، اتجه كل منهم إلى خيمته. أخرج منها أدوات الطعام. التى لم تستعمل بعد. اتجه مصطفى ناحية المطبخ الميدانى الصغير. شم رائحة رمل لامست وجهه بعض حباته. نظر أمامه فشاهد سحابة من الغبار. اقترب منه زميل آخر، نظر نحوه. من خلال حبات الرمل. وصوت الأقدام. ونداءات الجنود. . سمعه يقول:

ـ اليوم الأول بيكون صعب. بعده تهون كل الأمور.

رفع مصطفى يده. كان يمسك بها القروانة والكوب لوح بهما قائلا:

ـ دا صحيح فعلاً.

أتى الفجر. له ذيل أحمر. عند خط الأفق البعيد، انتشر ببطء على صفحة السماء. التقط نجوم السماء المتناثرة على سطح السماء. كالحب من فوق أرض الجرن. فى الطابور وقف مصطفى، ينتظر دوره. كى يصرف تعيين السحور.

(٧) عن الرقم سبعة، الحرب، الطائرة، شجرة التوت، ثم السبب فى وقوع الغزالى على الأرض فجأة

قريتنا تكره الأرقام الزوجية، لا أحد يدرى السبب فى ذلك، الكبار يقولون انها دليل شؤم، الأرقام الفردية ذكرها يسيل على ملامح الوجوه ليونة. ويمنح القلوب راحة. عندما يبدؤون فى العد. يقولون. «اللّه واحد» يخشن الصوت عندما يكملون «مالوش تانى» تعود الراحة إلى الصوت والوجه وهم يهمسون: الحبيب تالت الأنبية».

الرقم سبعة مرسوم فوق القلوب. وفى حياتهم البسيطة تكون الأشياء جميلة لارتباطها بذلك الرقم. يعدون الأيام بالاسبوع. ومولد سيدى الأربعين يكون أسبوعاً. والسوق الكبير يقام فى البلد يوم السبت من كل أسبوع. عند سفر أحد أبناء البلد. وينشغل الفكر والبال عليه. الحنين لا يكوى النفوس إلا فى اليوم السابع. بعد أن تستدير الليالى والنهارات مكونة سبعة أيام.

– زى النهاردة كان سفره.

فى اليوم السابع فقط، تدرك الضهرية أن أبناءها سافروا وأنهم غابوا. وفى اليوم السابع تدرك أنها تحب كل مافيهم حتى الشقاوة واللعب والجرى.

– الغريب طالت غربته.

فى اليوم الثامن تبدأ الضهرية فى الحديث عنهم. أنهال الكلمات التى تقال تنبع من بحيرة واحدة، وكل الجمل تبدأ بهذه الكلمة:

– ياترى.

ينطقها الأفندية «ياهل ترى». المعنى واحد على كل لسان. طبلية الافطار والاستيقاظ من النوم على دقات السحور، أوقات ينبت فيها أبناء البلد من لحظات الانتظار.

– ياترى بيفطروا فين دلوقت.

التساؤلات الخارجة من أفواه تمضغ الطعام ببطء وتكون من النساء عادة. أما الرجال فيتصنعون الجد.

– زمانهم فى وحداتهم زى زمايلهم.

ويرد طفل صغير.

– يابختهم.

يظهر الرجال عدم المبالاة، يقفون فى وجه الضعف النسائى الجارف، ولكن شيئاً مابداخلهم يخونهم، الدموع تدق جدار العين. الرجل رجل. والجلسه حول الطبلية توشك أن تنتهى. وبعدها يخرج إلى الجامع، أو الدكان وهناك يفعل ما يحلو له.

مساء الثلاثاء، سافر مصطفى، مر الأربعاء والخميس والجمعة، أدركت أمه أنها أصبحت رجل البيت من بعده، فقررت القيام بالعمل الذى كان يقوم به. ذهبت الى الجمعية ختمها كان فى جيبها، أخذوه منها، غمسوه فى الختامة وختموا به أوراقاً كثيرة، وأعطوها

الكيماوى وظلت فى الحقل طول النهار. قالت نورة مساء اليوم الثانى لرحيل مصطفى للغزالى. أنها عندما ذهبت لأمها فى الحقل. وجدتها تربط وسطها وتلف رأسها بالطرحة، وتمسك الفأس وتعمل، من بعيد خيل لها. أن رجلا يلبس جلباب امرأة يعمل فى حقلهم اقتربت منها فاكتشفت أنها أمها.

فى الصباح، فتح الغزالى عينيه، فوجد خطا من ضوء الشمس، يبدأ من رأسة، ويمتد مع جسمه وينكسر قرب الحائط. الوقت هو الضحى. ومن قبل حاولت نوره أن توقظه مبكرا مثل كل يوم، أتاه صوتها مختلطاً بصياح الديكة:

– حاتتأخر عن المدرسة.

قال لها، وهو تحت الغطاء. ان جميع المدارس فى القطر كله. قد أغلقت ابتداء من اليوم بسبب الحرب، هزته نوره:

– وطبعاً قلت بركة ياجامع.

أغمض عينيه ولم يرد عليها. وان كانت كلماتها قد ذكرته بحكاية الرجل، الذى لم يذهب للصلاة أبداً، طوال حياته كلها وهو لايصلى. وذات مرة أرغموه على الذهاب إلى المسجد. راوغ وحاول الهروب. ولكنهم ساقوه، فوجدوا الجامع مغلقاً، فهلل، ومن يومها كان المثل، تصله اصوات كل صباح، مناجاة أمه للجاموسة قبل حلبها، حركة أقدام الجاموسة، اصطدام رأسها بالمدود. يتلاشى الصوت، فترة من الهدوء يأتى بعدها صوت شر شوب اللبن واصطدامة بقاع الشالية،

تتجة أخته إلى قفص الدجاج تفتح لها الباب الصغير، تنطلق ويصبح كل شبر فى البيت مباحاً لها. أصوات المنازل الأخرى. نهيق حمار، نباح كلب، صوت رجل يحدث زوجته، قبل ذهابه الى الحقل.

قام الغزالى، دخل غرفة المعاش، أغلق الباب خلفه، تناول أفطاره وهو واقف، رمضان هو الذى منعه من الأكل فى أى مكان آخر. الغزالى لا يصوم. وأن كان يسبق الكل الى الطبلية وقت المغرب. وقبل أن ينام يمسك نوره من يديها، ويحلفها بكل الذين ماتوا، وبشرف الذين لم يموتوا بعد، وبمقام سيدى صلاح الدين، ان تصحية فى السحور، وان كان لا ياكل كثيراً. لقمة أو لقمتين. وينطلق بمجرد سماعة صوت طبلة المسحراتى، يوقفه الباب، لا يستطيع أن يفتحه، فالوقت ليلاً والباب مغلق باحكام خوفاً من أولاد الحرام. يفتح له مصطفى، وينطلق كى يلحق بالمسحراتى.

كان افطار الغزالى، من بقايا سحور الليلة السابقة. هكذا تعود فى رمضان. أكل حتى شبع، لبس الجلباب المقلم وكبس الطاقية حول رأسة. ودس قدميه فى حذاء قديم. اليوم عطلة. والغزالى يفهم المطلوب منه دونما كلمات. سيذهب الى الحقل. أركبته أمه الحمار. وأعطته فى يده مقود الجاموسة وأطلقت الماعز. سارت الحمارة، فهى تعرف الطريق، الحارة ثم الشارع وأخيراً الى داير الناحية. سمع من راديو موضوع فوق بنك بقال، أناشيد وأغانى عاليه الصوت انتهى الى داير الناحية، وخلف البلد وراءه، وأصبح على الطريق الذى يوصله الى الحقل.

الأمس كان نصف يوم فقط. فى طابور الفسحة أتى الناظر بشخصه، وقف فى منتصف المربع الذى يكونونه بوقوفهم وتحدث معهم. لم يصل صوت الناظر الى الغزالى، شعر بالواقفين حوله يصفقون فصفق معهم. بعد ذهاب الناظر. عرف من التلاميذ الكبار. ان المدرسة ستغلق، وان الحرب قامت. تساءل:

– الحرب؟

لوح طالب بالسنة السادسة فى وجهه:

– دى قايمة من يوم السبت.

حسب الغزالى الأيام فى ذهنه:

– يعنى من أول امبارح.

كاد التلميذ الكبير أن يضربه:

– شاطر. عرفتها لوحدك.

حمل كيس كتبه وخرج من الفصل. فى الفناء كان الطلبة قد تحولوا الى حلقات متناثرة يتكلمون، اتجه ناحية الباب الخلفى، سار بجوار السور الخارجى. . ومن فتحاته كان يرى السعاة، وهم يرفعون الدكك والكراسى. يكومونها فى أركان الفصول. ويعلقون على جدران الفصول لافتات كبيرة، لم يميز المكتوب عليها، على باب المدرسة، شاهد الغزالى، ضباطاً وجنوداً. ذكروه بالغالى مصطفى. كان الناظر معهم. الحديث بينهم يدور بصوت عال. الأيادى تشير والأفواه تتحرك والملامح تضحك. وحول الباب كانت

سيارات عسكرية تقف. قال الأطفال. ان المدرسة تحولت الى معسكر. وقال أخرون، بل مستشفى عسكرى، طفل أكبر منهم سمع ما يقولون. فرماهم بالجهل، وعدم الفهم. قال ان المدرسة أصبحت من اليوم:

– قيادة لقوات المنطقة.

صاح الأطفال فى صوت واحد:

– ايه؟

– قيادا.

أعاد نطق كلمات جملته ببطء هذه المرة. وشرح لهم الحكاية. الكلمات تسقط فوق أذنى الغزالى. ولكنه لايفهمها. انضم إليهم طلبة المدرسة الاعدادية، كونوا كلتة كبيرة، تتحرك وتتكلم وتسير وتتزاحم ببطء، المهم هو الحديث. ولذا فإن أقدام الكبار تدوس أقدام الصغار، والأيادى فى اندفاعها خلال الحديث ترطم وجهاً أو تطرف عيناً. وجد الغزالى نفسه خارج الدائرة. بحث عن بداية الحديث. فوجدها بعيدة، الهواء يحمل له كلمة، ويطير أخرى. حاول أن يرتب الحكاية فى ذهنه، كى يحيكها لنوره، بعد عودته الى البيت. لم يكن ذلك سهلاً عليه. سمع كلمات عن القوات المتمركزة فى المنطقة، المطار. اسعاف الجرحى، الحرب الشعبية الدفاع عن الضهرية ضد العدو. اقترب من السائر بجواره. سألة عن يوم العودة إلى المدرسة. بدت الحقول واسعة امام عينية. وهو يتابع زميله الذى قال له، ان

المدارس لن تفتح أبوابها إلا بعد الحرب. .

علق صوت طالب:

- ويا عالم بقى.

ابن الغريب، كان سعيداً، قطع المسافة من المدرسة إلى بيتهم المؤجر جرياً، وقعت كتبه اكثر من مرة، اسمه أشرف، لا ينادونه إلا بابن الغريب، والغريب ليس اسم والده بقدر ماهو صفته، من السويس حضروا. لم يكن أشرف وقت حضوره قد نط عن السادسة من عمره يوماً واحداً. يستعد هذا العام لامتحان الابتدائية. قال وهو يجرى ان عودتهم قريبت. اكثر التلاميذ لم يفهموا سبب فرحة إبن الغريب أبداً.

فى البيت تعثر الغزالى وسط الكلمات. سقط فوق الأحرف الخارجة من فمه، لم تستقم الحكاية فى ذهن نوره. اكتفى بالقول، ان المدرسة اغلقت أبوابها نهائيا. . قالت انها سمعت ذلك من راديو فى دكان البقالة ليلة أمس. لم يجد ما يحكيه. فانطلق يعوم فى برك اكاذيبة، قال ان الناظر أصبح ضابطا كبيراً. والتلاميذ والمدرسين جنوداً. أما المدرسة، فهى الآن معسكر، وكل هذا فى انتظار الحرب التى ستحدث فى الضهرية بعد أيام.

اتسعت عينا نوره دهشة. ورفضت أن تصدق. ولكن الغزالى تشبث بما قاله، وزاد عليه، قال لها، انه سيتسلم بندقية فى المساء. وعليه حماية حارتهم. وضحكت عندما أدركت أن البندقية أطول منه.

وعندما قال لها. ان لبس العسكرية، ذكره بمصطفى. هبت على ملامح وجهها ريح حزينة، غرقت فى صمت طويل، ولم تعد تسمعه فصمت هو الآخر.

أول أيام العطلة. الحقل والغزالى بمفرده. حضرت معه أمه. تركته وعادت إلى البلد، كان أول مافعله أن صعد فوق شجرة التوت، القائمة على رأس حقلهم. من أعلى مكان فوقها وقف ينظر فى كل الاتجاهات. سمع الكثير عن مطار فى البر الثانى من النهر، لم ير شيئاً. غطى عينيه بكفه، ليتمكن من الرؤية، لم تكن أمامه سوى الحقل والأشجار، نزل من فوق الشجرة وقف على رأس الحقل. الغزالى بمفرده. والفرصة متاحة أمامه لكى يقلد مصطفى فى كل ما يقوم به، البداية من لحظة حضوره من البيت فى الصباح، يربط البهائم فى مذاودها، يخلع ملابسة ويضعها فى قلب شجرة التوت العجوز. يحضر المنجل ويمسكه بيده. ينظر فى عين الشمس، ويرفع كفه يتلقى بهاضوء الشمس. ينزل الحقل، يسير ببطء، يتوقف يجلس أحياناً محاولاً رؤية شىء ما فى الأرض. والعودة من فوق الحد الذى يفصل أرضهم عن ارض الجيران، الحقل والزراعة والبهائم والساقية. كل ذلك ملك الغزالى الآن. فكر أن يدور حول الحقل من الناحية الأخرى. شعر بتعب من آثر المشى، ففك قيد الحمار، وضع فوق ظهره جوالاً فارغاً. قاده، وأوقفه بحذاء مدار الساقية المرتفع.. لف وصعد فوق المدار.. أصبح من السهل عليه أن

يركب فوق ظهره. يحرك قدميه ورفع صوته ونخسه، تماماً كما يفعل مصطفى. على الطريق. بدت له الحقول والترعة والأشجار، نظر الى السماء. زرقه خريفية قريبه الى اللون الرمادى. كانت صفحة السماء صافية

من جهة الغرب. نبت جسم لم يكن له صوت.

تصوره غراباً أو حداة. يطير فوق السحاب. اقترب الجسم وكبر. وملأ صوته الفضاء. كانت طائرة. مرت بالقرب منه. خاف على شجرتهم العجوز أن تصطدم بها فى اللحظة التى سدت فيها الطائرة عين الشمس. وحجبت عنه السماء كلها. وغرق فى ظلها، وأصابته رعدة. قفز الحمار. سقط الغزالى بين قدمية. وأى وهو على الأرض قوائمة الأربعة. وظلاً ضخماً يغطى الحقول من حوله. الظل يتحرك راسماً هيكل طائرة على الحقول. الظل يسير ببطء. متجهاً ناحية البر الآخر من النهر.

وقف الغزالى، نفض جلبابه من التراب وبحث عنه مداسة وتحرك نحو الحمار. أمسك مقوده ونظر ناحية الشرق، الطائرة تقترب من الأرض، تبطىء، صوتها يخفت. تابعها بعينيه حتى ذابت وسط الحقول والأشجار. ذهب خوفه عندما تذكر المطار الكبير.

الطائرة التى مرت لم تكن الأولى. كاد بعضها أن يلامس أوراق شجرتهم العجوز. شعر الغزالى بحنينه لمصطفى الذى يفهم أمور

العالم أكثر منه. أدرك انه يحبهم، مصطفى وأمه ونوره. وقف فوق مدار الساقية. بدأ ينظر ناحية البلد بقلق. أمه لم تحضر بعد.

على البعد. عند أول الطريق. نبتت نقطه سوداء. كانت تتحرك ببطء. عرف فيها أمه. اقتربت، فبدت له ملامحها أكثر وضوحاً. الغزالى ينتظرها. وهو يعد فى ذهنه الكلمات والحكايات التى سقابلها بها. عن الطائرة والحقل وشجرة التوت. لن ينسى أن يؤكد لها أنه لولا وجوده لبار الزرع واحترق الشجر وتهدمت الساقية من الطائرات.

ماله الدست بـيغلى
قال مـن كـتر ناره
« مثل شعبى من زماننا »

(٨) لوحة أخيره ..
بدلاً من الخاتمة التقليدية

١- كيف دخلت كلمة طفوا النور حياة الضهرية ؟

الضهرية حبيب. والحبيب بحر بلا شاطئ آخر. والبحر له أعماق وبه أماكن ضحلة ترى العين قاعها. الضهرية كائن آدمى .. يأكل ويشرب ويحاول أن يفهم ويدرك الأمور على نحو شديد الغموض. كتلة ضخمة من الناس والمبانى والأشياء تضحك وتحزن وتستوعب ما يحدث حولها على طريقتها الخاصة.

ليلة النصف من رمضان. أتى الليل. فذابت ملامح البلد داخل غبشة مسائه. ليالى انتصاف الأشهر لها لون معين فى حياة الضهرية. بعد غبشة المساء. يخرج قمر الليل. قرص أحمر مستدير، يرش البلد بضوء فضى لامع. الذين خرجوا من بيوتهم لصلاة العشاء فى المسجد. شاهدوا القمر، دائرة كاملة. وغيوم الخريف الكاذبة توشح أطرافة. السماء لوح من الهدوء. والسحب معلقه بها وسط النجوم الشاحبة كأنها قناديل الليل المنسبة.

الضهرية أم فتحت ذراعيهالكل الذين يعيشون بعيداً عنها . يستحمون كل مساء فى مياة الغربية الباردة كالصقيع، من اليوم

الأول للحرب حضروا. مسحوا غربتهم فى حواريها وبيوتها. حكوا عيونهم فى جدران بيوتها. الحديث على ألسنتهم له مفردات أخرى. جلسوا على المصاطب، وأمام الدكاكين. قال شاب منهم. انها أول حرب بعد دخول النور. حوارى الضهرية تنبت أطفالاً صغاراً يصيحون كل مساء.

– طفوا النور . . طفوا النور.

تماماً مثل البنادر البعيدة.

فى الليل. ما ان يفتح باب أو توارب نافذة أو ترفع شراعة. حتى يخرج شريط من الضوء فتتعرى الحارة كلها تحته. وعلى الفور يصيح الأطفال:

– طفوا النور . . . طفوا النور.

٢– متى دخل الشاويش فتح الله والاومباشى عدس حياة الضهرية ؟

الضهرية تسمع الآن أصواتاً غريبة. سماها شبابها المثقفون العائدون من البنادر البعيدة. بعد اغلاق المدارس والجامعات. بأصوات الحرب. فى الليل يخرج من الظلام عمود من اللهب الأحمر.. يدور حول نفسه. موزعاً ضوءه المخيف على جهات الكون الأربع بالتساوى. اهتزت بيوت البلد أكثر من مرة. قيل ان طلقة مدفع فى المطار هى السبب، الهزة جعلت البيوت القديمة تنذر أصحابها أن

أيامها أصبحت معدودة. فى السوق شاهدوا الجنود يشترون ما يلزمهم. منظرهم محبب إلى النفوس. فى القدم حذاء خفيف دون جورب. السترة مفتوحة، يطل منها شعر أسود غرير. الرأس عار. وان كانت علامات الطوافى العسكرية واضحة فيه. أسماء جديدة دخلت حياة الناس، الشاويش فتح اللّه والأمباوشى عدس. كل اسم ارتبط بعالم من الحكايات، بلده وأهله وقصه حبه المحبط وزواجه الذى لم يتم وان كان قد تم. فالحديث عن العروس التى انتزع من أحضانها يوم الصبحية. سعادتهم لا تقدر عندما يعثرون على واحد فيهم أصلة فلاح يشم رائحة ابن كاره ولو كان على بعد ألف فدان أرض. يرى فيه أشياء يعرفها، تشقق اليدين، أو ضخامة القدمين.

عبرت داير الناحية، سيارات عسكرية. يقال بعد أن يهدأ الغبار الناتج عنها، على سبيل التوضيح.

– انها ذاهبة الى الوحدات العسكرية، أو راجعة منها.

٣– ماهو سر الورقة التى أعطاها زملاء مصطفى لأمة ؟

دار الأسبوع الأول. بعد رحيل مصطفى دورة كاملة، ها هو ثانى أيام الأسبوع الجديد. ولكن خبراً واحداً لم يرد عن مصطفى. فى الأيام الأولى. كانت أمه ترسل الغزالى إلى مكتب البوستة. كان يجلس على المصطبة المقابلة للمكتب، وشمس الصباح خيوط

مستطيلة باهتة اللون. يظل فى جلسته حتى تستدير الشمس وتصبح عمودية فوق الرأس، فى هذا الوقت الطويل. يكون الساعى قد حضر من التوفيقية فوق دراجته. حاملاً معه كيس الرسائل ووزعت على أصحابها.الغزالى يعود كما ذهب. الشيخ سليمان يمر وقت الضحى فى حوارى البلد. كثرت الرسائل معه بعد الحرب. فحمل كيساً ضخماً حتى يتسع لها. تعودت نوره أن تنتظره. تسأله عنياها وملامح وجهها:

– لسه مصطفى ما كتبش لكم . .

فى اليوم التالى، خرج الرد من بين شفتيه بمجرد أن رآها، قبل أن تسأله، كل يوم جديد، يحمل الرسائل أكثر، برز من جلبابه إنتفاخان. عرف الناس انه يضع الرسائل فى جيوبه من كثرتها. عند مروره على الدار كان يرفع صوته:

– لسه مصطفى ما.

ويمضى. فى اليوم الأخير. مر بجوار الحائط. لم يرفع صوته ولم يتكلم. الغزالى لم يجد فى نفسه حماساً للجلوس على المصطبه كى يشرب صقيع الصباح. مد الخريف يده، نسج من ذبوله وسأمه وسادة استراحت فوقها القلوب المتعبة. الأم مشغولة على مصطفى بعد الافطار. عدت الأيام على أصابعها:

– هو سافر يوم . .

الدمع لا يأتى . . لسع قلبها حنين جارف لا يعبر عنه الا البكاء.

،أن احساساً فى دفء الدموع يصعد الى الصدر. ولكن العينين نفد دمعهما منذ زمان بعيد . . اليوم ينحدر نحو نهايته وسماء الغروب تبدو فى انطفاء وجه الأرملة. الغزالى لم يخرج مساء مثل كل الأماسى. آذان العشاء، قرآن السهرة، الليل الغويط. آه من مجيئ ليل شتوى ممطوط الوجه. نام الغزالى. أدخل يديه فى فتحتى جلبابه ولف ذيل الجلباب حول قدميه، سمع أصواتا وأحاديث. تخيل انه السحور، وان نوره لم توقظه. فتح عينيه. كادت رموش العين أن تصطدم بجسم أسود على الحصيرة. أبعد عينيه. اكتشف انه حذاء ميرى، صعدت نظراته. كانت للحذاء رقبة طويلة، عند آخرها بنطلون كاكى. رفع رأسة. كاد يتلامس مع السقف الأسود المشتعل بالسناج، صدر رجل يرتدى أفرولا على رأسة طاقية. لم يكن مصطفى.

قام من نومه. تربع على الحصيرة، فرك عينيه بسرعة اكتشف انهم ثلاثة، من أفواههم خرجت الكلمات سريعة، وبصوت عال، كانوا يودون الذهاب. على الحصيرة شاهد أكواب الشاى وأعقاب السجائر وقشر فول سوادى. الجلسة كانت طويلة اذن. جلسوا مرة أخرى أمام الحاح الأم واصرارها، اشترط واحد منهم أن يكون الجلوس لمدة ساعة فقط. صممت أن يبقوا حتى موعد السحور. اعتذروا بسفرات ومواعيد محددة.

– الظروف يا أمى.

نورة تجلس، أمامها منقد عليه براد الشاى. . زحف الغزالى على يدية وقدميه فوق الحصيرة. مر بثلاثه ظهور بدت عريضة. الستر الصفراد فوقها لم تكن نظيفة ولا مكوية، بين السترة والسروال قايش أصفر خشن المنظر. مالت عليه نورة قبل أن يسأل:

– زمايل مصطفى.

غرقت عيناه فى بحار الدهشة. اقترب منها اكثر، اكملت:

– فى مأمورية.

اتسوعب الغزالى الحكاية ببطء. لمست نظراته وجوههم على الحائط. خلفهم تستند ثلاث بنادق، يميز أحدهم عن الآخرين ثلاثة أشرطة سوداء فوق كتفه. عينا الغزالى لم تفارق الضيوف لحظة واحدة. الكل يبحث عن بداية الحديث، كان خيطه قد انقطع بقيامهم. جلسوا من جديد، مما جعل العثور على أول الخيط أمراً صعباً. سالتهم أم مصطفى كيف عرفوا مصطفى، قال كل واحد منهم حكاية تعرفه على مصطفى. حكاها وسكت. أدرك الجميع أن فى الفلاح شيئاً ما. يشم، يحس، يدرك ولا يدرى أحد كيف يتم هذا.

– ربنا يطمن أمهاتكو عليكو.

الهمهمة خافته، تخرج من بين الشفاة غير واضحة. عثروا على بداية الحديث وتاهت العقول بين سيل الأسماء الغريبة. نظرات الغزالى تتحرك من وجه لآخر استقرت فوق وجه نورة، الخدان اطار من البياض مشرب بحمرة خفيفة. بداخل الاطار مسحة من الجمال. نظرات اقتربت شفتا الغزالى من اذن نوره:

– فين جواب مصطفى؟

أمسكته بيدها:

– مابعتشى.

أمه تنظر إلى الحصيرة، على ملامح الوجة شريط من الظلال. فوق جبهتها ثنية متفكرة. بدت وكأنها احدى ملامح الوجة الطبيعية. اكثر الكلمات كانت عن مصطفى، سألتهم عن موعد حضوره. قالوا ان الأجازات مستحيلة، اخشوشن قلب الغزالى. عرضت عليهم أن تعد طعاماً لهم، يأخذونه معهم. ضحكوا. قال واحد منهم ان الأكل عندهم يسد عين الشمس. رأت فى أصواتهم ملامحه. ولمست فيها رائحة مصطفى. عاد الصمت فانبت فى القلوب مخاوف جديده. كل ما قالوه ان مصطفى بخير. فى لحظة انصرافهم. أخرج الرجل حامل الأشرطة الثلاثة فوق كتفة. من جيب سترته ورقه. الضوء خافت والورقه البيضاء اكثر الأشياء وضوحا فى المشهد كله. لوح لها بيده.

– دا توكيل.

أطلت من عينيها التساؤلات.

– بموجب التوكيل ده يا أمى.

شرح لها. تذهب أول كل شهر الى الحمامات، لتصرف مرتب مصطفى. انتشر بداخلها غناء رقراق، كلمات غنتها أيام ان كان القلب أخضراً وطرياً.

– وهوه.

هزت أياديهم القوية يدها. تحركوا، كان الغزالى يقف بين قدميها:

– وصل الضيوف ياغزالى.

حمل اللمبة الجاز وخرج. انطفأت من الهواء. فعاد وأشعلها فى الحارة. كانت الظلال تتحرك ببطء، ظل الغزالى معهم. إلى أن ألحوا عليه بأن يعود. وهوعائد الى البيت شعر برغبة فى الغناء. ولكنه خاف ملامح وجه أمه المتعبه فسكت.

٤– عندما دخلت كلمة الاستراتيجية فى محضر رسمى ؟

الجلسة المفضلة للرجال بجوار ترعه تدور حول البلد، يقرؤون على صفحة مياهها بطء أيامهم. وقت الغروب تكون حمراء، تبدو فى بياض القطن المندوف، عند برودة الفجر. أما طول النهار فزرقتها مغسولة لامعة. النهارات الصحو فى أكتوبر حالات كاذبة. وشمس الشتاء غيمة صفراء. السحب تمر بهدوء وبطء من تحتها وفوقها. الرجال يتكلمون. على الشفاه ترقص الكلمات والتعابير تقال باللغة العربية الفصحى، تنزلق على الألسنة. الأصابع تمتد الى الراديوهات تعبث بمفاتيحها، تحولها الى كل الاتجاهات، تلتصق بها الاذن، الذهن يصيبه الضنى وهو يحاول أن يفهم ما تتصيده الأذان من

أصوات. الشيخ سليمان. موزع الخطابات له أكثر من عمل أخر. أهمها انه يشرح للناس ما يحدث.. لا يدرى أحد من أين يجد اليقين الذى يستريح له فى حكاياه هذه، يقترب من حلقه الرجال. يرمى عليهم السلام ويبدأ الحديث. بعد كلمة أو كلمتين. تمتد أصابع الشباب لتعيد النظارات الطبية الى مكانها الطبيعى فوق الأنف.

قال الشيخ سليمان:

– أصل الستراتيجية.

الكلمة الأولى كانت عامة. الثانية لم تخرج من بين شفتيه صحيحة. عدوى الابتسامة لفت دائرة المحيطين به. يسألونه. الجهل اتهام جاهز على لسانه، يرمى به الكل

– وايه معنى الاستراتيجية.

الشاب نطقها صحيحة. فاستقر فى وعى الشيخ سليمان احساس بالقهر.

انتفض الشيخ سليمان:

– ايه شغل المدارس دايا ولد انت وهو؟

كالعادة، انتهت الجلسة بمحضر صلح مكتوب من أصل وصورتين وموقع عليه من المتعاركين جميعاً، بألا يتعرضوا لبعضهم بعد ذلك، ومعتمد من العمدة وشيخ البلد، الخفير النوبتجى الذى يكتب محضر الصلح فى دوار العمدة وقف طويلا أمام الكلمة سأل الشاب:

– اللا ايه الكلمة سبب العراك.

نطقها الشاب أكثر من مرة. ولكن الخفير لم يستطع كتابتها. ضحك الكل. ولكن الخفير حول الموقف لصالحة، بأن خبط المنضدة بكلوة يده. وأمر الشاب :

– استهجى الكلمة يا أستاذ. حاأمتحنك.

قال الشاب وسط الضحكات:

– ألف لام ألف. سين. ته.

٥ – فى الصباح والمساء: تليفون العمدة يدق ؟

فى فجر اليوم الخامس عشر بعد رحيل مصطفى، وقع حادث هز الضهرية كلها. شاهد خفير الدرك المعين فى أول البلد من الناحية القبلية. مع أول قطرات الضوء نقطة بعيدة تتحرك ببطء. على آخر الشوف. كانت النقطة تتحرك وتتوقف. ترتفع وتنخفض. الفجر هو أحلى أوقات النوم فى الليل كله. ولكن الخفير أصبح يقظاً. عندما انعكس على حديد بندقيته الصدئ أول خيط رفيع من ضوء الشمس كانت النقطة قد أصبحت عند مشارف البلد، النقطة لم تكن سوى شاب من أبناء البلد. عرفه الخفير على الفور.

– عبد الله. . مالك؟

الدفعه عبد الله لم يرد . . مد يده للخفير الذى اقترب منه. وبدلا من السؤال والجواب، أمسك بيدة اليسرى. لفها حول كتفه، حمله

وسار به. كل الذين شاهدوا الخفير وعبد الله. كانوا ذاهبين إلى الجامع للصلاة أو الحقول للعمل. كلهم عادوا، ساروا وراء الخفير الذى يسند عبد الله بل يحمله من حاره لحارة. ازداد العدد، أطفال ورجال وشيوخ ونساء، تهامسوا . . ففضحهم البخار الخارج من الأفواه مع الكلمات. وعكرت الهمسات صفو الحارات وهدوءها الصباحى. فسكتوا. حينما وصل الخفير الى باب بيت عبد الله. كانت الضهرية كلها وراءه، خبط الباب بقدمية. ودخل الخفير ساندا عبد الله. خرج الخفير بعد قليل بمفرده. ليؤكد لهم. ان عبد الله أصيب برصاصة فى فخذه. عبر وحارب وأصيب. عولج فى المستشفى العسكرى وحضر فى أجازة مرضية. وإن كان الجرح لا يزال طرياً، قال رجل متعلم:

– يعنى فى فترة نقاهة.

سألة الخفير:

– فترة ايه ياخويا؟

نبت من الكتلة الواقفة من الناس، سؤال واحد:

– عقبال ابننا يارب

قالتها أكثر من امرأة. وهن فى الطريق الى بيوتهن. وفى دوار العمد. كان التليفون يدق. دقاته تحرك الخفير النوبتجى الذى يقوم مسرعاً كالملسوع. يمسك المسماع بيده. يقربه من أذنه وينصت. خطوط التعب تستريح على ملامح وجه.

– يصير التنبيه على الجندى مرزوق أبو السعود. بتسليم نفسه

إلى مكتب التعبئة بمركز ايتاى البارود. ليس متأخراً عن سعت. . يوم. .

يحمل المراسلة النوبتجي الاشارة. مكتوبة على ورقة صغيرة مشرشرة الحواشى يذهب بها إلى العمدة، أو نائبة يقرؤها بتمهل. وبقلمة الأبنوس القديم يؤشر عليها . . للتنبية على المذكور، والتوقيع منه بالمعلومية. يذهب الخفير المراسلة إلى بيت مرزوق. وهو يفهم ما سيحدث هناك.

لحظة الوداع. ستقول أم مرزوق له بحروف مغموسة فى دموع العين:

ـ أول ما توصل أبعت لنا جواب ياكبدى.

تجفيف الدموع

— ١ —

كنا قد تقابلنا صدفة، عانقنى بحرارة، رأى ما آلت إليه حالى، غير انه تجاهل الامر، كى يفهمنى انه ليس خطيراً، ولا يستحق الاهتمام، قلت له، وانا اداري ارتباكي، ان صدفه ربما كانت خيراً من ألف ميعاد. ربت على ظهرى ضاحكاً. وقال : ان حياتنا مجموعة من الصدف، الحسنة او السيئة. اكمل حديثه. ان الحياة صدفة كبيرة، يخططها الحالمون ويبكى عليها السذج. ويقدسها الشعراء، ولا يعيشها فى نهاية الامر سوى الحمقى.

امتد الصمت بيننا، ورحنا من خلاله نجمع شمل الذكريات القديمة، ضايقنى عدم سؤاله عما آلت اليه الحال، حرك يديه. بدا لى الموقف غير محتمل، عند هذا الحد، اشار إلى الناحية الاخرى من الميدان ، وسألنى :

– كنت عند الدكتور أمون ؟

دهشت.

– كيف عرفت ؟

– وذاهب إلى معمل التحاليل الطبية فى شارع الزهور ؟

– صحيح، ولكن

– لا تسأل.

ازدادت دهشتى، سألته عن وجهته. قال لى، انه نزل كى يقابلنى، أكمل قبل ان اسأل، ان هذا الموعد، قد ضرب بيننا منذ ستين يوماً

مضت. لقد كان يعرف من قبل، أننى سأعبر هذا الميدان، فى هذا الوقت بالتحديد. غرقت فى بحار من الدهشة. آثرت الصمت. قال لى انه يجب ان يتمشى كثيراً. فالجلوس يؤلم قدميه. ثم توقف عن الحديث ادركت ما يجول بخاطره، لا بد وانه فكر فى ان يدعونى ان اتمشى معه قليلاً، ولكنه تذكر حالى، فادرك سخف الدعوة. اشرت إلى مقهى صغير فى الناحية الاخرى من الميدان. عرضت عليه ان نجلس فيه قليلاً. ثم ينصرف كل منا لحال سبيله. فوافق. وعندما سرنا، نظر إلى نظرة خاطفة. كنت اعرج، واعتمد على عصا كانت معى. . بيد انه تشاغل بالنظر إلى الناحية الاخرى. نظرت إليه. مازالت له نفس النظرة الحالمة، والشعر الغزير والملابس النظيفة. بدأ يحلق فى سيره. تذكرت ما قاله لى فى بداية لقائنا. فأدركت اننا لم نلتق صدفة، فاستبشرت خيراً. واقترب منى. قال ضاحكاً :

– واللّه زمان. .

ضحكنا لحديثه، ولكنى لم اقل شيئاً.

— ٢ —

كان الوقت مساء، جلست، جلس قبالتى. ركنت عصاى بجوار المنضدة، مددت يدى فى جيبى، اخرجت التحاليل الطبية، وضعتها امامى، وعندما حضر الجرسون طلبت شاياً. امتدت يدى إلى مطفأة السجاير، رحت افرغها من محتوياتها، وانظفها بعناية، استغرق هذا

العمل وقتاً. كان المقهى يطل على احد الميادين الصغيرة، وفى الميدان، كان زحام ساعة الغروب والسرعة، وضجيج السيارات، واصوات الراديو التى لا مفر منها. طلب «شيشة» وراح يدخنها ببطء وهو يتسلى بمتابعة دخان الشيشة بعينه، قال وهو يدخن دون ان ينظر الى :

– حدث ذلك، فى الممر اياه.

– صحيح.

– كان الوقت يشبه لحظة ميلاد النهار أو لحظة موته.

– صحيح تماماً.

– أما عن اليوم، فلم يكن هناك ما يميزه.

صمت من جديد، اقتربت منه، حاولت ان اتكلم موضحاً الامر. بدا لى الصمت اكثر اماناً. كان ما يشغل ذهنى، هو كيف عرف الصديق القديم ما قاله لى؟ كنت اود ان اقول له، ان الطبيعة تشفق علينا فى مثل هذه اللحظات فنصاب باغماءة صغيرة، قبل وقوع الخطر بقليل، ثم نفيق بعده، فنجد ان ما حدث قد حدث. كنت اود ان اوضح له الامر اكثر من ذلك. كنت أذكر الكثير. وماتت على الشفتين كلمات نسجتها اللحظة الحاضرة. واحسست برعشة جديدة، حلوة وطرية وطارئة، نفضت عن القلب والذهن واللسان صدأ الايام وتذكرت رائحة قريتنا فجر الليالى الممطرة، وشممت عبق الأرض المختمرة بمياه الامطار، ورائحة ازهار النارنج وسمعت

طنين النحل، فرفعت يدى، لوحت بها فى وجه صديقى :

قلت له :

– يا ألف مرحب.

– أهلاً بيك.

– ٣ –

كنت قد سمعت احد الزملاء يقول :

– لن يفهمنا الناس.

ردد عليه آخر :

– لقد ساء موقفنا.

قال ثالث :

– لقد كانت الشظية من القوة بحيث اصابت جنبه الايمن. فأخذ الدم ينزف منه بغزارة. حملناه فوق ظهورنا وسرنا، استرحنا فى الطريق مرتين. غير انه مات فى منتصف الطريق. لم يستطع احد منا ان يساعده.

آخر ما اذكره، قبل ان يحدث الامر. اننى تناولت زمزمية المياه بجهد. ادركت ان يدى سليمتان. كانت اصابعى موجودة بالفعل، تشير إلى شئ ما كسنابل عجفاء، وراحت يداى ترتجفان وانا ارشف قطرات الماء. فى طريق العودة كان القطار يسير ببطء. كان يقف فى المحطات الصغيرة. لم يكن هناك ركاب. كان يقف ريثما ينزلون منه الموتى. لقد تكرر وقوفه كثراً.

— ٤ —

– سألني، كيف اقضى وقتى؟ قلت له : اننى استيقظ فى الصباح. وبعد تناول الافطار. اذهب إلى المستشفى، حيث آخذ جلسات كهربائية على ذراعى وقدمى السليمة، ثم اعود إلى المنزل. وفى المنزل. انتقل بين الحجرات، او اجلس امام النافذة. حتى الظهر. وبعد تناول الغداء. انام نوماً كالاغماء. وفى العصر أذهب للطبيب لإستشارته او لاجراء بعض التحاليل الطبية، او اجلس فى مكان ما، ثم اعود إلى المنزل، فى نهاية الامر، قلت له : اننى لا يصح لى ان اكثر من الحركة، خاصة فى مثل ظروفى، غير ان حلاوة الروح، تدفعنى إلى كل هذا، اننى اعود إلى منزلى كل مساء وقد اشرفت على النهاية. واقسم الا اخرج بعد ذلك ابداً، واتخذ القرارات، واخطط واشرع غير انى فى لحظة موت النهار، لحظة سقوط الليل، اقوم كالملسوع، واقول لنفسى، ان هذا الليل لو نزل على وانا فى المنزل، فسأموت هذا المساء.

– الا تزور الاصدقاء القدامى؟

– احياناً.

– والعمل؟

لم ارد عليه، اشرت إلى ساقى بيد مرتعشة.

– كما ترى.

قال :

– اقصد ؟

– من ناحية المرتب، اتقاضى معاشاً لا بأس به، واعالج على نفقة احدى الجمعيات.

قال فى دهشة :

– ولكنك لم تصل إلى الثلاثين بعد. .

لم ارد عليه. . سألنى وهو يشير إلى الافق البعيد.

– ومستقبل الايام.

بدت لى احلام الصبا والشباب كذكرى بعيدة، وجدت ان الحال مختلف اشد الاختلاف عن ايام الدراسة. .

غرق كل منا فى صمته، صفق بيديه. طلب ناراً، وضعها عى الشيشه وواصل التدخين. بدت كلمته الاخيرة، تساؤلا اكثر منها سؤالا يطلب الاجابة.

كان الليل قد حل، واضحى الميدان، ومداخل الشوارع المتفرعة منه، غارقة فى بحار الاضواء والظلال. اشار بيديه دلالة التسليم. قال :

– لا أحد يعرف اين مصلحته على وجه التحديد.

وضع مبسم الشيشة على المنضدة، ومسح فمه بيديه، واستند الى ثم اقترب منى :

– اسمع، سأحكى لك حكاية. .

يحكى انه حدث فى الايام الاولى، ان كان هناك سبعة من

العميان، احسوا بسوء الحال. ورأوا بقلوبهم ما آلت إليه الحال فى بلادهم. فقرروا الهجرة، بحثاً عن ارض جديدة. امسك كل منهم بيد الاخر. وقالوا مرحى يا زمن النزوح والترحال وسافروا، فى الصدور كلام الله. وفى القلوب امل بالعثور على ارض جديدة. وخلال سيرهم اعترض طريقهم فيل ضخم الجثة. سد الطريق امامهم. تماماً. توقف العميان وتشاكوا احوال هذا الزمان، وبكى كل منهم حزنه الخاص وقرروا ان يعرفوا ما يسد طريقهم، وبايديهم راحوا يتحسسون الواقف امامهم. امسك كل منهم جزءاً صغيرا منه، وخمن ما يكون. قال احدهم : انه جمل. وقال اخر : بل حصان. وقال ثالث : جذع شجرة عجوز. وقال رابع : بناء ضخم. قال كل منهم كلمة. بيد أن احدهم لم يدرك ان الواقف امامهم فيل ضخم الجثة.

– وهكذا نحن فى الحياة.

ثمة ثمالات من كلمات تسرح بداخلى، والعقل يطير ثملاً بضباب الشك، وراحة اليقين مكان لا وجود له على الارض.

– ٥ –

كان قد استغرقنى تفكير فيما قاله لى. ورحت اتابع المارة فى الميدان. اقترب صديقى منى. كان الحائط الذى نجلس بجواره مرآه عتيقة. وعندما استدرت إليه، رأيت وجهينا معاً متقابلين. ان الشفاه تتحرك، وملامح الوجوه تعبر عما نقوله. قال لى اننى ابدو متعباً

لحد كبير. وان ذلك ليس من مصلحتى، افهمته بصوت منخفض، اننى ذهبت الى اكثر من طبيب، واختلفوا جميعاً بشأنى. قال لى احدهم، اننى مريض بإكتئاب نفسى. وقال آخر : ضعف وتوتر فى الاعصاب. وقال ثالث : انيميا. قلت له : اننى متعب من سرد حكايتى عليهم. والرد على اسئلتهم، تناولت الادوية ورضخت لتعليماتهم. غير ان الامر لم يجد شيئاً. ومازالت الحالة تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. قلت لصديقى : اننى مازلت فى ايام الشباب ولكننى اشعر ان العمر قصير. وان الايام تمر على بلا احلام. رفع يده محاولاً ان يوضح الامر لى. غير انى اكملت، اننى فى ساعات الليل، فى حجرتى الصغيرة، اسمع صوتاً مبحوحاً، يقطر حزناً ودماً وبكارات مستباحة، يعلق على ما حدث، يتحدث عن الذى لم يحضر بعد، والذى يأتى ولا يأتى. قلت اننى صحوت من نومى ذات صباح، فاكتشفت اننى اصبحت كهلاً، وان ايامى شاخت قبل ان تبدأ. ان السن تحمل معها لكل انسان انموذجه الخاص به من الدمامة والقبح، انها لتجربة قاسية ان ينادى الانسان فلا يستجيب لندائه احد، ان النجوى فى الطرقات الخلفية الخالية تماماً، المغسولة بالصمت، سرعان ما تفقد بهجتها، وحتى العمر يفقد نضارته.

– فيه حل.

انصت إليه.

– هناك سيدة عظيمة.

- أين هى. .؟

- عند أطراف مدينتنا

- وهل نجدها؟

- وجودها باسمرار غير مؤكد.

- واحتمالات الشفاء.

- سبق ان ذكرتك بالخير منذ مدة.

- اذن نحاول

هدر فى داخلى شلال الاغنيات القديمة رجوته ان يهتم بالامر. قلت له اننى لا اطلب سوى الشفاء، هل اؤمن بالغيب واين ما تعلمناه؟ الم نقل من قبل : العلم بدل الغيب؟ قلت له : الشفاء ولا شئ سواه. اندفعت فى شرايين القلب قشعريرة حارة. عشت زرقة السماء الصافية فى قريتى، وخضرة النباتات الزاهية وسمرة الارض الغامقة، وسمعت انين الرياح فى ليالى الشتاء.

قال :

- لو وجدناها فالشفاء مؤكد.

عاشق يا مولاتى، عندما استمعت إلى كلمات صديقى القديم. وجدت فى العيون حزن السنين القديمة وتذوقت على الشفاه ملوحة البحار البعيدة وعذوبة الينابيع البكر.

قال صديقى، اننا سنركب، حتى حدود مدينتنا البحرية. وهناك. . على شاطئ النيل سنعبر النهر إلى الناحية الاخرى. وبعد ذلك

سنسير فى طريق طويل. . يدور بنا حول حقل وساقية وبيت مهجور ومدافن قديمة. ثم يعود الطريق بنا إلى شاطئ النيل مرة أخرى. . وهناك مكانها المعهود.

- قلت ان مولاتنا ذكرتنى بالخير ذات مرة. .

- حدث ذلك

- ما المناسبة. .؟

صمت، غير انه كان هناك سؤال بدا لى ملحاً بدرجة لا تقبل التأجيل، ورغم جميع تحذيراته. قررت ان اسأله اياه. اقتربت منه، رفعت يدى فى المسافة بين وجهينا.

قلت له :

- هل سبق ان ذهبت إليها. .؟

قال لى بوجه متجهم:

- قلت لا تسأل.

احسست اننى افتقد فى الشخص أمامى، صديقى القديم. قررت ان اصارحه بذلك، وبدت لى المصارحة موقفاً معقولاً الى ابعد حد. ولكنى لم اقل له شيئاً.

- ٦ -

قمنا، دفعت الحساب، لم يكن معى فكه، انتظرت حتى احضر

الجرسون الباقى. وقفنا أحدنا أمام الآخر، رجوته ان يدلنى على هذه السيدة. قال لى، انه سيمر على فى ظرف اسبوع كى نذهب معاً إليها. ضحكت ذكرت اننى مازلت فى اول ايام الشباب. واننى فى حاجة الى حدوث معجزة، تعيد كل شئ إلى ما كان عليه. فقلت لنفسى، ان لقائى بالصديق القديم، سيكون البداية والنهاية معاً. اخرجت من جيبى ورقة وقلماً، طلبت منه ان يأخذ عنوانى ويعطينى عنوانه. انه يذكر منزلنا جيداً. واما عن عنوانه، فليس هناك داع لذلك. قال لى، ان كل ماعلى ان انتظره فى المنزل. وان لا اخرج لاى سبب وسيحضر الى. سلم على، قال لى : ان هذا اللقاء اسعده إلى ابعد الحدود. وانه سيسعده ان نلتقى بعد ذلك كثيراً. تمنى لى ليلة سعيدة، ابدى استعداده ان يوصلنى الى منزلى، ان كنت فى حاجة إلى ذلك. شكرته، وان كنت احس بما يشبه وخز الابر تحت القلب. سار. . استندت إلى المنضدة. نظرت إليه. . كان يشبك يديه خلف ظهره. وقد احنى كتفيه. وبدا رأسه متدلياً الى اسفل. كان يسير ببطء. وبدا لى انه ينزع قدميه من الارض بصعوبة. جلست فى مكانى. طلبت كوباً من الماء البارد، اخرجت منديلى. جففت به نقاط العرق المتجمعة، فوق جبينى، شربت الماء، ومسحت فمى بيدى. . قمت من مكانى. امسكت العصا، وضعتها فى تجويف ابطى. ورحت اسير عابراً الميدان. وعندما اصبحت فى الناحية الاخرى، هبت على نسمة هواء خريفية. حاملة رائحة الشتاء المقبل. فذكرتنى بأن عاماً

من العمر قد مضى بكل ما فيه. اكملت سيرى. تذكرت اننا غيرنا مسكننا مرتين. وان المنزل الذى كان يتردد على فيه صديقى القديم. ليس له وجود الآن. هدم بعد ان تركناه. وتذكرت اننى لا اعرف عنوانه، عندئذ همس فى داخلى صوت مبحوح يقول : اننى لن ارى صديقى القديم بعد ذلك ابداً.

الفهـرس